



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

بجته التأليف والترجمة والنشر

سالك عياراً
المؤرخون في مصر

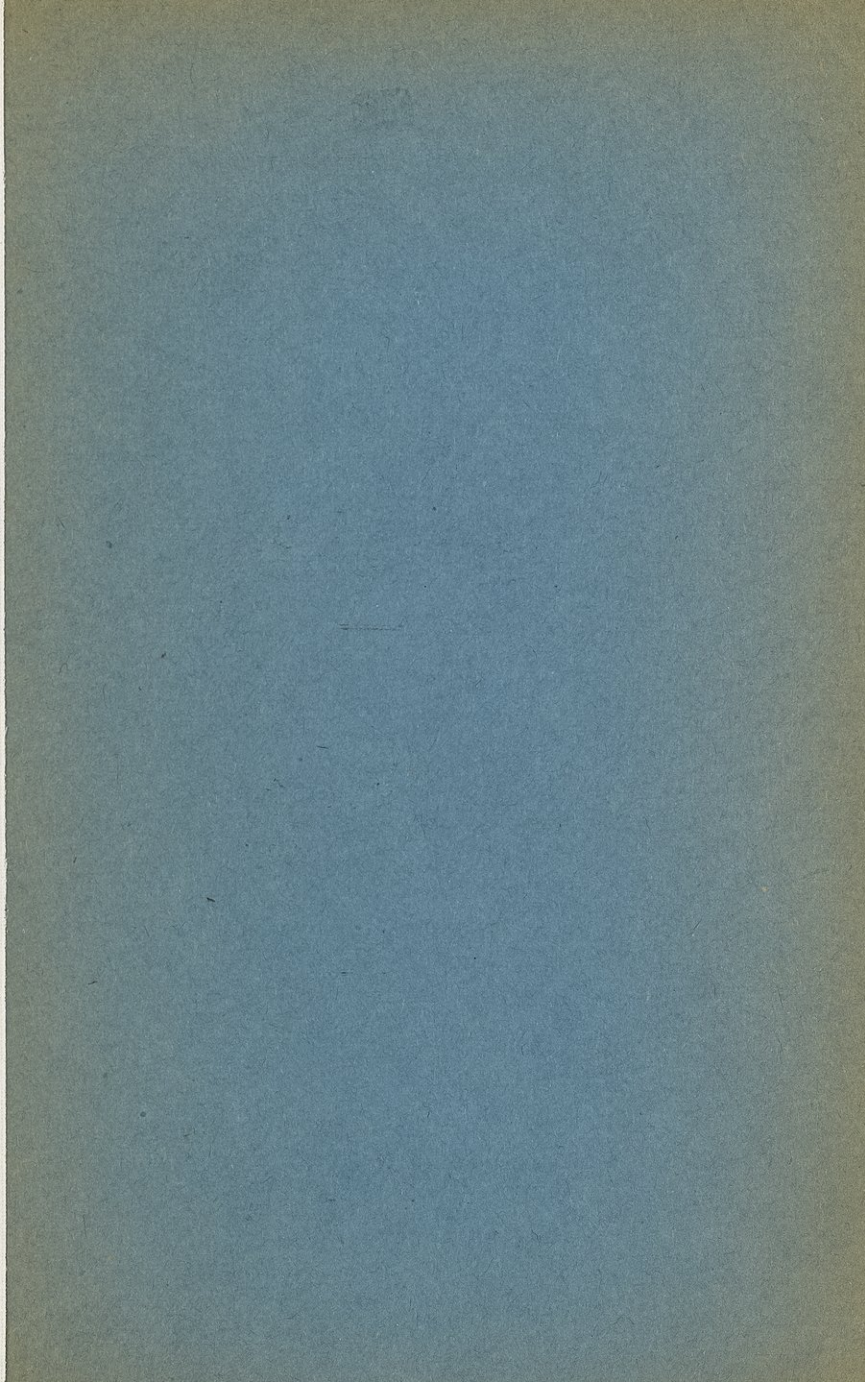
في القرن الخامس عشر الميلادى
(القرن التاسع الهجرى)

محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



المؤرخون في مصر
في القرن الخامس عشر الميلادى
(القرن التاسع الهجرى)

Ziyādah

محمد مصطفى زيادة
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة قواد الأول

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٩



(Arab)

DT76

.7

.259

1949



محتويات الكتاب

صفحة	
٥ — ل	تصدير
٣ — ٢٥	الفصل الأول — المقرئى ومعاىروه ...
٢٦ — ٤٥	الفصل الثانى — أبى المحاسن ومعاىروه
٤٦ — ٨٠	الفصل الثالث — ابن إياس ومعاىروه ...
٨١ — ١٠٥	الفصل الرابع — خاتمة ونقد مقارن ...
١٠٧ — ١١١	فهرس بأسماء كىب المؤرخين ...



Dr. J. H. D. D.

... ..
... ..
... ..
... ..
... ..
... ..
... ..

تَضَرُّعٌ

الحاجة الشديدة إلى معجم يحوى سير الذين يرجع إليهم فضل التوجيه في المجتمع المصرى ، على مختلف الأزمنة ، أمر مفروغ منه ، والشروع فى ذلك المعجم عملٌ ينادى هل من مبتدى ، ولست أعرف ممن استمعوا إلى هذا النداء وأصاخوا ثم استجابوا إلا نفرأ كرمياً قليلاً ، والعمل ضخم يتطلب مجهوداً أضخم ، والحاسة الفردية فيه كالغناء بصوت مرتفع فى البادية الوحشة .

ويعذرني القارىء إذا أنا قلت فى إيمان راسخ إن مشروع ذلك العمل لا يقل أهمية — فى حاضر الأمة ومستقبلها — عن مشروع مكافحة الأمية ، أو مشروع الإلزام فى التعليم الابتدائى ، فهو مثلهما نوع من المكافحة فى سبيل النهضة العامة ، وهو مثلهما كذلك فى حاجة إلى عدد من الأيدي العاملة فى صمت نشيط . وما أبرئ نفسي من إقبال على الدعوة إلى ذلك المشروع أحياناً متقطعة ، كما لا أبرئها من إدبار عن الكلام فيه أحياناً أقل تقطعا ، ولعلنى أكَفَّر عن هذا وذاك بالصفحات التالية الحاوية لأخبار المؤرخين الذين عاشوا بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، وخلفوا من

المؤلفات ما سوف يبقى المصدر الأول لما نحتاج من معرفة لأحوال ذلك العصر من تاريخ وثقافة ، وأدب واقتصاد ، وسياسة واجتماع ، ولا سيما إذا أضفنا إلى تلك المؤلفات ما هنالك من كتب أخرى مغمورة ، وآثار كثيرة شبه مغمورة الأوصاف في كتب الأخصائيين .

وأحب هنا أن أقرّر في غير تردد أو لبس أنى لا أدمى القول الفصل في المؤرخين بمصر في القرن الخامس عشر الميلادى بهذه الفصول القليلة ، وأنى لا أعتبر نفسى ملأت فراغاً كبيراً من مشروع المعجم الذى يجب أن يتوفر على ملئه مجمع من الباحثين ، إذ الصفحات التالية لانعدو أن تكون محاولة هى الأولى من نوعها ، وهى كذلك لا تعدو أن تكون معالجة لأخبار طائفة مفردة من طوائف المؤرخين فى بلد ذى تاريخ مديد . والعارفون بالتأليف العلمى الحديث يدركون تمام الإدراك ، أن الموضوع الواحد فى علم من العلوم كائننا ما كان ، يستطيع — بل ينبغى — أن يظل ميداناً مفتوحاً للاجتهاد ، والتعديل بالحذف والإضافة ، جيلاً بعد جيل ، على شرط الإحسان والتدرج نحو الكمال ، والعكس غير مطلوب أو مرغوب فيه ، وهذا بديهى .

وأحب هنا كذلك أن أهمس فى أذن الراغبين فى الكتابة فى طائفة أخرى من المؤرخين فى مصر — وأرجو أن يكون من أولئك الراغبين كثرة فى القيمة لا العدد — أنى لم أستمد

حقائق من كتب التراجم فحسب ، بل قرأت جميع ما وصلت إليه
يذى من مؤلفات القرن الخامس عشر الميلادى بمصر فى التاريخ
وغير التاريخ - مطبوعة ومخطوطة - ، وأخرجت منها مملومات
كثيرة عن طريق المقارنة والاستنتاج ، كما عثرت على بعض
ما دوت هنا من حقائق تاريخية فى غير مظاهرها من الكتب
المروفة .

وللقارى أن يسأل هنا عن الغرض الذى من أجله هدفت
إلى الاقتصار على الترجمة لطائفة دون غيرها من المؤرخين فى
مصر ، والجواب أنى لم أهدف بذلك إلى غرض معين . بل الواقع
أنى أعددت هذه التراجم سنة ١٩٢٧ م لتكون فصلا إضافيا
لرسالتى فى الدكتوراه بعد الاستقرار على عدد فصولها ، إذ رغب
الأستاذ المشرف وقتذاك أن أشرح له الأصول والمنابع العربية
التي استقيت منها حقائق الكثيرة ، ليكون على يدينى
من أمر تلك الحقائق وأمرى ، وإياقى على درساً فى الجرح
والتعميد (historiography) ، وهى العدالة والضبط على قول
المحدثين . ثم غدوت مدرساً بعد ذلك بقسم التاريخ بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول ، وانصرفت انصرافاً مجزوءاً لتدريس تاريخ
الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام ، وأقيمت هذه التراجم
خير مقدمة لدراسة المرحلة الأخيرة من التاريخ المملوكى ، فنقلتها
من الإنجليزية إلى العربية ، وأضفت إليها ما استطعت أن أضيف .

من جديد ، ونشرت معظمها بمجلة الثقافة الأسبوعية سنلتى ١٩٤٠ - ١٩٤١ م . ثم كان أن ظهرت لى مادة جديدة مما تنشره المطابع بالشرق والغرب من متون وبحوث ، فمكفت مرة أخرى على تعديل هذه التراجم ، وغيرت بعضها تغييراً كلياً بالحدف الكثير والإضافة الكثيرة ، وبذا أودعت هذه الصفحات جميع ما جدّ على من فكرة ومادّة فى المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وتقدّمت بها للظهور فى مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولست أريد من هذا الظهور تنويعها بتلك الفئة من المؤرخين فحسب ، بل أريد كذلك تنبيهها إلى كتبهم التى لا يزال معظمها فى ظلمات المخطوطات ، إما بدار الكتب الملكية فى نسخة فريدة كاملة أو ناقصة ، وإما بمختلف مكاتب الشرق والغرب فى نسخ نحن فى أعظم حاجة إلى اقتناء صور منها . وهذه الكتب متفاوتة القيم ، والحاجة إليها كذلك متفاوتة الدرجات ، والمنطق العملى السليم يوحى إلى الاهتمام أولاً بالأهم من تلك الكتب دون مراعاة حجمها من حيث الكبير والصغر ، إذ تبين أن لبعض الكتب الصغرى من القيمة ما تقصر عنه الكبرى ^(١) . ومن أجل هذا وذاك دعوت — مرة بحد مرة — إلى ضرورة العناية بنشر

(١) انظر ما يلى ص ٩٠ — ٩١ .

المخطوطات التي لن تستقيم كتابة التاريخ المصرى بدونها فى صورة مطبوعة ، ودلت على إخلاصى لهذه الدعوة بنصيب لا يزال فى نظرى قليلاً .

وسوف يلحظ القارىء أنى اخترت توقيت هذه التراجم وتواريخها بالسنوات الميلادية ، لا حباً فيها ، ولا هجراً للتوقيت الهجرى ، ولا إمعاناً فى الفرجة . بل قصدت بذلك أن أجعل من هذا البحث الصغير مرآة لناحية من الحياة العلمية والثقافية بمصر فى العصور الوسطى بمعناها العام ، لا بمعناها الإسلامى الخاص ، لأدل على مبلغ ما أسهمت به مصر فى التراث الإنسانى ، وأبرهن على أن المجتمع المصرى الإسلامى فى العصور الوسطى جزء هام من المجتمع البشرى فى تلك العصور . ولذا عنيت بالمقارنة هنا — فى هذه المقدمة — بين مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر وأوربا ، فهذا القرن الذى أنجب المقرئى وابن حجر وابن عرب شاه وأبا المحاسن والسيوطى وابن إياس وغيرهم فى مصر ، هو الذى أنجب حنا لفيقر (Jean le Fèvre) وفرواسار (Froissart) ومونسترولييه (Monstrelet) وشاستلان (Chastellain) وبرسيقال د'كانى (Perceval de Cagny) فى أوربا .

غير أن المقارنة لا تقف عند الأسماء فحسب ، بل تمتدى إلى الخصائص والوسائل والغايات عند المؤرخين فى مصر وإخوانهم

في أوربا — كل على شاكلة ونضج بيئته وشخصيته وأحواله —
 فإن حجر أشبه حنا فيقر في أن كلا منهما تولى وظيفة كبيرة
 مسئولة في بلده ، وكتب وهو على تلك الوظيفة مذكرات ضافية
 في بعض صفحاتها بأمرار عصره ؛ وابن عرب شاه أشبه برسيقال
 دُكاني في أن كلا منهما نصب نفسه لكتابة تاريخ في مدح ملك
 أو سلطان ، وهذا وذاك على سبيل المثال لا الحصر . وأكثر من
 ذلك أن معظم المؤرخين في مصر وأوربا في القرن الخامس عشر
 الميلادي استخدموا وسائل متشابهة في جمع الحقائق والأخبار
 وتدوينها ، فتعقبوا الحوادث وتفاصيلها كما يتعقب الصحفي مادته
 للصحيفة اليومية ، وابتدأوا مؤلفاتهم بأصل الكون وتاريخ
 الخليقة ، وانتهوا بالسنوات التي عاصروها وشهدوها ، على نظام
 الموسوعات القديمة (summa) ، كما دأبوا على طريقة الحوليات
 الرتيبة ، ونقلوا من كتب السابقين في غير خشية أو قصد أو
 اعتراف بالنقل ، مع الاشتغال بنظم الشعر والإجادة فيه إلى جانب
 صناعة التاريخ (١).

ثم إن تاريخ القرن الخامس عشر الميلادي في مصر يشبه

(١) يرجع الفضل في معظم المادة الأوربية لهذه المقارنات إلى الدكتور
 ج . و . كويلاند (G. W. Coopland) الأستاذ الزائر بكلية الآداب بجامعة
 فؤاد الأول ، وهو الذي أشرت إلى سابق فضله على في دراسة الدكتوراه
 بجامعة ليقربول بإنجلترا .

أخاه في أوروبا ، بل يتبين من المقارنة بينهما أنه إذا كان ذلك
القرن عصر انتقال و انقلاب في التاريخ الأوربي ، فهو عصر
أكثر انتقالا و انقلابا في التاريخ المصري ، إذ شهد ذلك القرن
مطلع النهضة الأوربية الكبرى ، ومصر ع البقية الباقية من
الدولة الإسلامية في أسبانيا ، وحركة الكشف الأوربي في سبيل
الوصول إلى الهند عن طريق المحيطين الهندي والإطلنطي ،
كما شهد موجة الغزو المغولي بالشرق على يد تيمورلنك ، وهي
الموجة التي هددت كيان المايك بمصر والشام و كيان العثمانيين
بآسيا الصغرى وأوروبا ، وكادت تقضي على كل من الدولتين
بدوره . غير أن الدولة المملوكية ما لبثت أن أفادت واستطاعت أن
تصفي الحروب الصليبية تصفية نهائية بالاستيلاء على جزيرة قبرص ،
والتغذية على ذلك بمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس ، كما استطاعت
الدولة العثمانية أن تصفي البيزنطيين تصفية نهائية كذلك بالاستيلاء
على القسطنطينية وتحويلها عاصمة للعثمانيين . على أن قصة القرن
الخامس عشر الميلادي في مصر والشرق لم تتم فصولا إلا بعد
قيام الدولة الصفوية بفارس ، إذ تمخض الوضع لدولى الشرق عن
تنافس بين الصفويين والعثمانيين على السيادة في العالم الإسلامي ،
ونهموض المايك للمحافظة على تلك السيادة التي استقرت في
دولتهم منذ إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة منتصف القرن
الثالث عشر الميلادي . ثم انتهى الأمر كله حين أزال العثمانيون

دولة الصفويين ودولة المماليك ، وحلوا محل هذه وتلك بتغيير
والقاهرة ، وغدت القسطنطينية عاصمة المسلمين ، وتغير محور
الارتكاز في الدولة الإسلامية أعظم تغيير .

وأودّ أن أختتم هنا في نعمة من الشكر لأصحاب الفكرة
والفضل في ظهور هذه التراجم مطبوعة في كتاب مستقل ،
وأولهم الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، فهو الذي أشار علىّ بجمعها أيام نقلتها إلى العربية ،
ثم الأستاذ محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف فهو الذي
نصحني بتقديمها على غيرها مما عندي من ثمرات المطالعة
وبجاني المحاضرة ، ثم الأستاذ عبد الحميد العبادي بك ، عميد كلية
الآداب بجامعة فاروق الأول ، فهو الذي قرأ هذه الصفحات وأشار
بتعديل بضع من عباراتها قبل إنفاذها للطبع . وأودّ كذلك
أن أشكر تلميذيّ " وصديق " حسن حبشي وأحمد عيسى ، فكل
منهما فضل في ظهور هذا الكتاب ، إذ ساعدني أولهما في الترجمة
الأولى من الإنجليزية إلى العربية ، وقام ثانيهما على ترتيب فهرس
المؤلفات الوارد هنا بعد الخاتمة ، كما جهد مع مطبعة اللجنة على أن
يخرج هذا الكتاب في صورة جديرة بالقارى العربي الحديث .

محمد مصطفى زبارة

مصر الجديدة { ٢٦ جادى الأول سنة ١٣٦٨ هـ .
٢٦ مارس سنة ١٩٤٩ م .

المؤرخون في مصر
في القرن الخامس عشر الميلادى
(القرن التاسع الهجرى)

الفصل الأول

المقرنيزى ومعاصروه

ربما دلّ البحث المقارن في عصور التاريخ — وهو ميدانٌ بكر لاستجلاء الأسس العامة في الحضارة الإنسانية — على أن القرن الخامس عشر الميلادى ، أى القرن التاسع الهجرى تقريبا ، أهم العصور التاريخية عند الإطلاق ، بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول ، والجماعات والأفراد ، بالغرب والشرق سواء .

وكفى دليلا هنا على صحة هذا الفرض التاريخى أن الأوربيين مضوا جاهدين أن يصلوا مباشرة إلى الهند وتجارتها طول هذا القرن ، حتى إذا وصل البرتغاليون منهم إلى الشواطئ الهندية صار مصير الشرق كله في كفة المقادير العاجلة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد البعيد ، بل عثر الأوربيون حوالى ذلك الوقت على أرض أخرى حسبوها الناحية الغربية من الهند ، وسماها أهلها الهنود الحمر ، ثم استقرّوا على تسمية تلك الأرض وسكانها أمريكا والأمريكيين ، ودأبوا وجوههم شطرها وشطر الهند الحقيقية في عنف لا هوادة فيه ونهم شديد ، مما يرجع كله في

الأصل إلى القرن الخامس عشر الميلادي وحوادثه .

والمؤرخين في مصر في ذلك القرن ظاهرة توجب الالتفات ،
وهي في الواقع برهان على بدء العالم الإسلامي في شيء من الإفاقة
لفهم كيانه ، ولعل أكبر دليل على وجود تلك الظاهرة تاريخ
ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، لاسيما
الجزء الأول منه ، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة ، إذ يرى
القارئ بصفحاته الافتتاحية تعريفا أخذًا للتاريخ بأنه " في
ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من
القرون الأول . . . ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للسكائنات
ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ^(١) " .
والواقع أن ابن خلدون يشير إلى العلل والكيفيات ، والأسباب
والنتائج ، بتلك الصفحات الافتتاحية إشارات كثيرة ، مما يدل
على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث ، كما أنه يشير إلى ما يجب
أن يتدرع به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات حين يقول إن
المؤرخ الصالح " محتاج إلى مأخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ،
وحسن نظر وثبت ، يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به
عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ،
ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — طبعة

فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذهاب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ... (١)“

كتب ابن خلدون تاريخه بعد أن تنقل فى البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب ، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلب فى خدم دواوينهم ، وأواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، كما سفر لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة ، عند بييترو (Pietro) ملك قشتالة المسيحية ، وبذا شهد بنفسه أحوال الكثير من الدول عن كثب ، ولس بيده عوامل التدهور الناشئة أظفارها بين المسلمين والمسلمين ، مما جعل لكتابه على وجه التعميم ، والمقدمة على وجه التخصيص ، قيمة تاريخية فريدة . ثم وفد ابن خلدون إلى مصر سنة ١٣٨٢ م ، وكان انتهى من تأليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين ، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة ، وحج أكثر من مرة ، ودرس بالجامع الأزهر ، والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو ، بل تولى منصب قاضى القضاة المالكية بمصر ، كما رافق الحملة المملوكية التى قادها السلطان فرج إلى الشام سنة ١٤٠١ م لدفع تيمور لnk عن دمشق ، وشارك فى وفد المفاوضة للصالح بين الدولتين المملوكية والمغولية .

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — طبعة

بوراق — ج ١ ، ص ٧ .

أما منبع الأهمية في هذه التفاصيل الخاصة بحياة ابن خلدون ، فهو أنها تنبئ بأصناف التجارب التي تمرّس بها وأودع منها في كتابه ، كما أنها تدلّ على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر والشام وغيرها من البلاد ، بل تدلّ المراجع على أن اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات أدت إلى تكوين مدرسة حوله من المعجبين به والمتعلمين على طريقته^(١) ، كما أدت إلى قيام فئة من الغامطين لمقامه^(٢) والننديين بمقدرته . وإذا لم يتسع البحث هنا لأكثر من هذه الإشارة العابرة ، فإن في أخبار تلاميذه ، والتابعين له بإحسان وغير إحسان ، برهانا على أن قصة المؤرخين في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله ، ولو لم يتسع الأمر لشيء سوى كلمات معدودة .

أما أول أولئك التلاميذ فهو أحمد بن علي المقرئ ، الذي ولد بالقاهرة سنة ١٣٦٤ م ، بحارة برجوان بقسم الجالية الحالي ، والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على حد المصطلح المصري في العصور الوسطى ، أو المهارة الكبيرة على حد التعبير الحديث ، ولا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائداً ببلاد الشام . وجاءت أسرة المقرئ إلى القاهرة من بعلبك في حياة أبيه

(١) انظر ما يلي ص ١٣ — ١٥ .

(٢) انظر ما يلي .

على ، وأصل نسبتها يرجع إلى حارة المقارزة بتلك المدينة الشامية القديمة ، ولا يسع الباحث هنا إلا أن يشير إلى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقريزي (Maccarese) ، وهي جهة بإيطاليا قرب (١) روما ، مما يحتمل معه أن تلك الحارة البعلبكية كانت سكناً لجالية من الجاليات الإيطالية التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية ، وأن أسرة المقريزي اكتسبت هذه التسمية لحولها بتلك الحارة (٢) بعد خلوها من أهلها الأصليين .

ومهما يكن فالمعروف المقطوع به أن أحمد بن علي المقريزي نشأ قاهرياً ، بناحية من أعظم نواحي القاهرة امتلاءً بالعمران والصخب وضوضاء الحياة (٣) ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ الحنفي ، هو الذي كفّل تعليمه ، لضيق حال أبيه عليّ فيما

(١) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد تعريفاً لهذه الجهة بمختلف المراجع الجغرافية والموسوعات ، ما عدا أطلس التيمس الجديد (Time's Modern Atlas) ، حيث ورد بفهرسه ما نصه (Maccarese, torr. environs di Rome) وربما كان من لطيف الاتفاق أن لفظ (macarisie) في الفرنسية وهو شديد الشبه بلفظ المقريزي اسم لمجموعة من النبات انظر : (Nouvelle Larousse Illustré).

(٢) جهد المؤلف أن يعثر على تلك الحارة حين زيارته بعلبك ، ولاكنه لم يستطع أن يتعرف عليها أو على موضعها من البلدة الحالية .
(٣) انظر المقريزي : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ٢ ،

يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الأملاك والعقار^(١) . ولذا أخذ جده بتنشئته على أصول الحنفية ، وانكبّ هو على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره ، وأظهر نجابة ومقدرة . ثم مات ابن الصايغ سنة ١٣٨٤ م ، فترك المقرئى مذهب الحنفية ، وانتقل إلى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ، وأخذ من ثمّ يهاجم الحنفية فى عنف استوجب لوم معاصريه له . ثم التحق المقرئى بالخدم الحكومية ، فكان أول عهده بها ديوان الإنشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل موقعاً — أى كاتباً — حتى سنة ١٣٦٨ م^(٢) ؛ ثم غدا بعد ذلك نائباً من نواب الحكم — أى قاضياً — عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، ومدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية . وفى سنة ١٣٩٨ م اختاره السلطان برقوق (وكان حفيماً به مشجعاً إياه) لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فمتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين . وفى ذلك الوقت تزوج المقرئى وأنجب ، إذ المعروف أن بنتاً له ماتت بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية ، سنة ١٤٠٣ م .

(١) نفس المؤلف والمرجع والجزء ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٥ .

(٢) انظر المقرئى (المواعظ والاعتبار — طبعة القاهرة —

ج ٢ ، ص ٢٢٥) حيث ذكر المؤلف أنه ظل فى وظيفة الموقع بديوان الإنشاء بالقلعة حتى تلك السنة .

وفي سنة ١٤٠٨ م انتقل المقرئ إلى دمشق ، ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان النورى ، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين الأشرفية والإقبالية هناك . ثم لم يلبث أن عينه السلطان فرج بن برقوق كذلك نائبا للحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المنتظرون على أوقافها قضاة بها . لسكن المقرئ أبى قبول هذا الشرف ، على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا من قبل السلطان ، ويظهر أنه سئم الخدم الحكومية وضاق بتكاليفها ، وأنه مَلَكَ من الموارد التى ربما ورثها عن أهله ما أغناه عن تضيق وقته فى كسب العيش ، عن طريق الدواوين ومجالس الحكم .

وكيفما كان الأمر ترك المقرئ دمشق وأعماله بها بعد إقامته عليها عشر سنوات تقريبا ، ورجع إلى القاهرة خاليا من عمل أو وظيفة ، ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، ولا سيما التاريخ . ومن أجل ذلك رحل المقرئ وعائلته سنة ١٤٣٠ م حاجا إلى مكة ، وكان مجاوراً بها قبلاً لإبان طلبه العلم ؛ بيد أنه ظل مقبياً بمكة تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥ م ، واشتغل بها فى تلك الأثناء بتدريس الحديث وبالتأليف فى التاريخ . ثم عاد المقرئ من بعدئذ إلى القاهرة ، حيث أمضى بقية حياته بحارة رجوان التى مابرح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر

أنه جعل من منزله بها مكانا لمدرسة تلاميذه ، وللتأليف الكثير في مختلف علوم عصره (١) .

بدأ المقرئى نشاطه العلمى الضخم بظهور تاريخ القاهرة المسمى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وهو كتاب عنى فيه صاحبه قبل كل شىء بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى الآن ؛ وكان تأليفه إياه ما بين عامى ١٤١٧ و ١٤٣٦ م . على أنه يظهر أن المقرئى اعتمد — إلى حد كبير — فى تأليف هذا الكتاب الزاخر — الذى يعد نخر مؤلفاته — على كتاب صنفه قبله الأوحدى المؤرخ ، فنقل منه دون أن يشير إليه أو يعترف بأخذه منه ، ورماه السخاوى من أجل ذلك بقوله إن كتاب الخطط " مفيد لكونه (أى المقرئى) ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائله (٢) " ، بل ذكر السخاوى فى موضع آخر إن الأوحدى " كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفاد وأجاد ، وييسر بعضها ، فبيئتها التقي المقرئى ، ونسبها لنفسه مع زيادات (٣) " ، وأن المقرئى نفسه اعترف بانتفاعه بتلك المسودات (٤) . ولم يستطع الإخصائيون من مستشرقى القرن

(١) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة — طبعة دار الكتب الملكية — ج ٨ ، ص ٢١٨ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٢ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

التاسع عشر الميلادى أن يدفعوا تلك التهمة تماماً عن المقرزى ،
أو يدلى أحدهم فيها برأى حاسم ، بل قال بصددها كاترمير
(Quatremère) الفرنسى إن من الفطنة والصواب أن نسكت عن
هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأى قاطع^(١) . على أنه
مما يسترعى النظر أن المقرزى نفسه لم يدفع هذه التهمة بشيء
قاطع ، ولم يستطع أن يدلى فى سياق الرد عليها بأكثر من قوله
”حسب العالم أن يلم ما قيل — ويقف عليه“^(٢) . يضاف إلى
ذلك أنه توجد بكتاب المواعظ شواهد داخلية تؤدى بالباحث
إلى كثير من الشك على الأقل ، ومنها خلو بعض كتب المقرزى
المنأخرة من عبارات واردة بكتاب المواعظ ، مثل إدلائه فى نسب
الأكراد والأيوبيين برأى هام ، وعدم تكراره لهذا الرأى على
أهميته فى كتاب السلوك^(٣) ، ومنها كذلك ما جاء بكتاب المواعظ
بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد مانصه : ” وآخر
من أدركنا فيه الشيخة . . . فاطمة بنت عباس^(٤) البغدادية ،

(١) انظر (Quatremère : Mamlouks. I., p. XIII)

(٢) المقرزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ١٢ ،
وكذلك ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، حيث أشار المقرزى إلى اتصاله بالأوحدى .
(٣) انظر مقدمتى للقسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك
للمقرزى ، صفحة ١ — ك .

(٤) المقرزى : كتاب المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق ج ٢ ،
ص ٤٢٨ . انظر كذلك ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ،
حيث ورد اسم هذه السيدة الفاضلة فاطمة بنت عياش .

توفيت في ذى الحجة سنة أربع عشرة وسبعائة “ ، وهذا التاريخ — إن صح المتن وصحت الوفاة — إنما يقع قبل مولد المقرئى (والأوحدى كذلك) بأزيد من خمسين سنة^(١) .

ومهما يكن من شىء فالمقرئى صدر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبية ، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطه بوصف دقيق ، مبتدئاً بالإسكندرية ، وعنى عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة طبعاً ، فجاء الجزء الثانى منه — وهو نصف الكتاب — ثبثاً زاحراً بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة فى المصور الوسطى . ثم أتبع المقرئى هذا الكتاب بتأليف فى تاريخ الفسطاط ، سماه عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، وهو فى الواقع تاريخ لمصر الإسلامية فى عهد الولاة . وأتلى المقرئى ذلك بكتاب فى دولة الفاطميين بمصر ، واسمه اتماظ الحنفا بأخبار الخلفاء^(٢) ، حتى إذا فرغ منه فكر فى تأليف كتاب يكون تاريخاً للأيوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته فى

(١) يلاحظ أن هذه العبارة منقولة من الطبعة الكاملة المعدودة أحسن الطبعتين المعروفتين لهذا الكتاب ، وهى عبارة تتطلب تحقيقاً دقيقاً بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض ، ولا يسمع كاتب هذا إلا أن يتمنى للمسيو جاستون فيت التوفيق فى إتمام طبعته الفاخرة لذلك الكتاب العظيم .

(٢) نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذا الكتاب حديثاً فى طبعة مزيدة عن طبعته الأوربية القديمة . (دار الفكر العربى ، ١٩٤٩) .

التاريخ المصرى الوسيط ، من الفتح العربى إلى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذى غدا أساساً رئيساً لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية الأولى والثانية .

ويلاحظ أن المقرئى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذيلًا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدول الإسلامية المصرية التى تناولها قبلاً فى بكر مؤلفاته . ومن أجل ذلك كذلك شرع المقرئى فى التأليف فى كتب التراجم والسير ، وأوغل فى مشروعات كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير أنه لم يتمهما لضخامة المقياس الذى بنى عليه كلا منهما . أما أول هذين المشروعين ، فهو كتاب المقفى الكبير ، وكان المقصود به أن يكون معجماً لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ أقدم العصور إلى ما قبل عصره ، وقدّر له أن يكون فى ثمانين مجلداً ، ولم يستطع أن ينجز منها سوى ستة عشر فقط . أما ثانيهما ، وهو كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، فكان الغرض منه أن يكون معجماً لتراجم معاصريه ، غير أن المقرئى تركه كذلك دون أن يفرغ من مراجعته .

وصرف المقرئى كثيراً من نشاطه الجهد فى التاريخ الإسلامى العام ، فألف فى السيرة النبوية ، وفى قبائل العرب التى

نزلات مصر منذ الفتح ، وفي جغرافية حضرموت بجنوب شبه جزيرة العرب ، وفي الدويلات الإسلامية بالحبشة ، كما أمهم بنصيب وافر في التاريخ الاقتصادي والنميات (Numsimatics) والتاريخ الاجتماعي ، حين ألف في الأوزان والأكيال ، والمقاييس والنقود ، وفي تاريخ المجاعات والطواعين . وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، إذ رجح المقرئ في الكتاب الأول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين إلى عصبية الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المريعة والحروب المستحرة ، والشخصيات المتنافرة ، التي لم تعد كلها أن تكون أسباباً طارئة على جزم ذلك الخلاف وجبرئومته ، مترسماً في ذلك سبيل ابن خلدون وفلسفته في المقدمة^(١) . أما الكتاب الثاني من هذين الكتابين فتناول المقرئ فيه تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ١٤٠٥ م ، وهي السنة التي ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية إنما هو " سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد"^(٢) ، وهو تخريج اقتصادي

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ١٠٧ ، وما بعدها .

(٢) المقرئ : إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشيل ، ص ٤ .

١١ سليم مصدره كذلك مقدمة ابن خلدون وما جاء بها في فصل الجباية وسبب قتلها وكثرتها ، وما يليه من الفصول المتفرعة على هذا المعنى ^(١) ، بل إن تأثير ابن خلدون على المقرئ في تأليف هذا الكتاب بالذات تعدى إلى طريقة العرض والأسلوب وفوائح الأبواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة ^(٢) . والحقيقة أن المقرئ تأثر بابن خلدون ومقدمته في هذين الكتابين وغيرهما من مؤلفاته تأثراً فاق حد الإعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها "لم يعمل مثالها ، وإنه لعزير أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ... ^(٣)" ، وهو وصف يدل في وضوح على دراسة

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ٢٣٣ ، وما بعدها .

(٢) المقرئ . إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشيال

صفحة د .

(٣) السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٤٤ . انظر المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، حيث توجد ملاحظة عابرة إلى ما كان من عظيم الصلة والصداقة بين المقرئ وابن خلدون ، وانظر كذلك المقرئ : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٥٠ ، حيث أشار المقرئ إلى ابن خلدون إشارة التلميذ لأستاذه ، ولم يتحرج أن يستشهد بعبارة لازعة له في وصف المصريين ، ونصها حسبما ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة : "قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من [يوم] الحساب " .

المقريزى لمقدمة ابن خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه
لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس إلى غيرها
مما عرفه خلال قراءاته الدائبة التى يبدو أنها لم تنقطع إلا بوفاته
سنة ١٤٤٢ م .

والواقع أن المقريزى كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع ،
كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به
ما خلفه من مؤلفات لم يرَ الضوء بعضها حتى الآن ؛ وإن نظرة
واحدة إلى ثبوت مؤلفاته لكفيلة بإيقافنا على إلمامه بالخطط والتاريخ
والترجمة ، والسكة والأوزان والمقاييس كما تقدم ، وهذا فضلاً
عن معرفته بعلم الحشرات^(١) والمعادن والطب والموسيقى ، وعلم
الكلام والعقائد والتوحيد والحديث . لكن أعظم اهتمامه كان
موجهاً نحو التاريخ ، لأنه كان مغرى به ، معنياً بتحقيقه والتأليف
فيه ، فعرف منه جزءاً كبيراً معرفة تامة ، وحفظ منه كثيراً
عن ظهر قلب . وأقر بذلك كله تلميذه الذى عرف معاصريه
من المؤرخين ، وخليفته الذى اقتفى أثره ومنهجه فى كتابة
التاريخ ، وهو أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، حين قال
فى كتاب النجوم الزاهرة : " وفى الجملة هو أعظم من رأيناه فى
علم التاريخ وضروبه ، مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين ،

(١) انظر كتاب نحل عبر النحل الذى نشره الدكتور جمال الدين
الشيال (مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

والفرق بينهم ظاهر ، وليس في التعصب ^(١) فائدة .
 أما عن أخلاق المقریزی الشخصية ، فالمعاصرون له أجمعوا
 على أنه عاش رجلاً فاضلاً ديناً ، مجدداً أميناً في عمله ، حتى إن
 السخاوی — مع شدته في نقد كتاب المواعظ والاعتبار —
 يقول إن المقریزی كان على جانب عظيم من ” حسن الخلق ،
 وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة
 في المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد ، وحسن الصلاة ،
 ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته “ ؛ وإنه ” حمدت سيرته
 في مباشراته ^(٢) “ ، أى في الوظائف التي تولاهما قبل أن ينصرف
 إلى حياة الدرس الخالية .

وحفل عصر المقریزی بكثير من المشتغلين بالتاريخ ، وربما
 بدا بعضهم أوسع منه معرفة بدقائق ذلك العصر ، نظراً لتقلبهم
 في الوظائف الكبرى بالدولة المصرية ، ومن هؤلاء ابن حجر
 والعيني و خليل بن شاهين وابن عرب شاه والخالدي .

أما أحمد بن حجر فمولده بمصر القديمة سنة ١٣٧٣ م ، وتوفي
 أبوه — وهو محدث نابه في زمنه — ولما يبلغ أحمد من العمر سنتين ،
 فنشأ يتيماً في كنف أحد أوصيائه ، ودخل الكتاب بعد إكمال

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ،

(٢) السخاوی : التبر المسبوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ — ٢٤ .

خمس سنين ، واستظهر القرآن وهو ابن تسع ، ويقال إنه حفظ سورة مريم في يوم واحد ، بل قيل إنه بلغ من قوة الاستذكار أنه كان يحفظ الصحيفة من الكتاب بعد مرتين ، الأولى تصحيحها والثانية قراءة في نفسه ، ثم يعرضها عن ظهر قلب في الثالثة . وسافر ابن حجر إلى مكة وجاور بها وهو في سن الحادية عشرة ، فسمع بها وتفقه ؛ ثم حبب إليه الحديث وانصرف إلى دراسته انصرافا كلياً بالحجاز والشام ومصر واليمن ، حتى صار حجة عارفاً بالعوالى والنوازل . واشتهر ابن حجر في عالم التدريس والفتيا ، وذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة المتعددة في الحديث والفقه والتراجم ، وأشهرها كتابه المسمى فتح الباري في شرح البخارى ، وهو في ثلاثة عشر مجلداً ، ولولم يكن له غيره من المؤلفات الكفى للتنويه بعلو كعبه ، على قول معاصريه^(١) والمنتمعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر . وبلغ من شهرة هذا الكتاب أن السلطان شاه رخ بن تيمورلنك وغيره من ملوك البلاد الإسلامية بعثوا في طلبه بسؤال علمائهم ، وأن نسخاً منه بيعت بثلاثمائة دينار . وبدأ ابن حجر هذا الكتاب سنة ١٤١٠ م ، فلما فرغ منه أقيمت ختمه وليمة كبيرة بمنظرة التاج والسبع وجوه بأرض منية السيرج الحالية ، أقيمت فيها المدائح نظمًا ونثرًا ، وحضرها ابن السلطان جقمق والأمراء ورجال الأدب ، ومن بينهم المقرئ

(١) ابن حجر الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٤٩٥ .

الذى كانت صداقة ابن حجر له وإعجابه بتأليفه جدّ عظيمين ،
حتى إن ابن حجر نفسه لم يكتب بالإطناب في مدح المقرئ
حين ترجم له في كتابه المجمع المؤسس والمعجم الفهرس^(١) ،
بل عرض عليه ما كتبه قبل أن يأذن للناسخ بنسخه .

وعاش ابن حجر شخصية بارزة في مجالس الدولة المملوكية
الثانية ، وذلك منذ سنة ١٤٢٤ م ، حين ولى منصب قاضى القضاة
الشافعية ، وهو أكبر مناصب القضاة وقتذاك ، ولصاحبه الأولية
على سائر قضاة المذاهب ، لكون مذهب الشافعى هو المذهب الرسمى
للدولة . وظل ابن حجر متقلداً هذا المنصب الخطير مدة إحدى
وعشرين سنة ، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مراراً في أثناء تلك الفترة
الطويلة ، لاستقلاله فى الرأى واستتمساكه بكلمة الحق ، مع لين
الجانب والاحتياط والتواضع ، والميل إلى النكت اللطيفة والنوادر
الظريفة . ولذا جاءت حوارياته — أو مذكراته بعبارة أدق — وهى
المسماة بإنباء الغمر فى أبناء العمر مرآة لشخصيته الفذة ، وصفاته
المحمودة ، فضلاً عن أنها من أهم المراجع الأصلية لعصره ، إذ كثيراً
ما يعمى فيها المؤلف بالقارىء إلى ما وراء السطار ، فينير ما استغلق
فهمه من حوادث الدولة وسياساتها العامة بالمراجع الأخرى . وبدأ
ابن حجر هذه المذكرات بسنة ميلاده ، وهى لذلك قاصرة
على تاريخ الدولة المملوكية فى حياته ، وتشبه فى ذلك — إلى حد
(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب الملكية المصرية .

صغير - كتاب الاعتبار لابن منقذ الشيرازي ؛ وربما كان أدلّ ما فيها على صفاته الشخصية وأحاديثه الرقيقة أنه حرص مثلاً على ذكر حال الورد كلما وصل إلى موسم الربيع والأزهار في حولياته ، حتى وفاته سنة ١٤٤٩ م . .

وكان العيني كذلك من المؤرخين المشهورين في عصره ؛ ومولده قبيل المقرزي بأربع سنوات في عينتاب ، وهي بلدة صغيرة بين حلب وأنطاكية . وجاء العيني إلى القاهرة أواخر القرن الثامن الهجري ، واختير لوظيفة المحتسب بالقاهرة والوجه البحري سنة ١٣٩٩ م ، بدلا من المقرزي ، فظلّ هذا مغاضباً لذلك من أجل ذلك - في أكبر الظن - طوال أيام حياته . وولى العيني تلك الوظيفة عدة مرات بين عامي ١٣٩٩ و ١٤٤٢ م ، وهذا فضلا عن توليته في الوقت نفسه لكثير من المناصب الرفيعة ، ولا سيما زمن السلطان برسباي الذي جعله قاضي القضاة الحنفية - سنة ١٤٢٥ م . وبقي العيني شاغلا لتلك الوظيفة الكبيرة مع الحسبة مدة اثنتي عشرة سنة متوالية ، وأضيف إليه في أنفائها نظر الأحباس بالقاهرة ، ولم يكن لذلك التعداد في الوظائف شبيه أو سابقة في تاريخ الإدارة في مصر الإسلامية ، على قول السخاوي وغيره من المعاصرين .

وغدا تمكن العيني من اللغة التركية أكبر عون على ما تهياً له من حظوة لدى سلاطين المماليك ، وعلى الأخص برسباي الذي

لم يعرف من العربية إلا القليل ، فكان العيني يجلس إلى حضرته ساعات الليل ، ليفسر له غوامض الفقه والشريعة ، ويقرأ عليه من حولياته التي كتبها بالعربية ، وهي كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ثم يترجمها له إلى التركية رأساً . وهذا الكتاب من أعظم ما كتب العيني في التاريخ ، وهو كذلك من أهم ما أهمله القوامون على نشر المخطوطات العربية وإحيائها حتى الآن . ومما خلفه العيني من المؤلفات كذلك ، (وبعضها بالتركية) شرح مطول في الحديث ، سماه باسم عمدة القارى في شرح البخارى ، وانتقى فيه من شرح ابن حجر ، بحيث نقل منه صفحات كاملة متتابعة ، ولم يتحرج عن معارضته كلما استطاع إلى ذلك من وسيلة أو مناسبة .

وإن في حياة العيني لمشاهد رائعة ، ومعلومات قيمة ، بصدد علاقات الصفوة من الأدباء والعلماء بسلاطين الممالك في ذلك العصر . غير أنه يظهر أن العيني لم يشأ أن تكون علاقاته بمعاصريه من أهل العلم على شيء من الوفاق والتقدير المتبادل ، وربما كانت حظوته عند السلاطين من أسباب الجفوة الطويلة بينه وبين المقرئى وابن حجر ، وهذا فضلاً عن أنه خلف الأول في منصب الحسبة ، ولأنه خلّق بينه وبين الثانى جدلاً عنيفاً بشأن كتاب فتح البارى . وتوفى العيني سنة ١٤٥١ م ، وهو فى الحادية والتسعين من عمره ، وذلك بعد سنتين من عزله عن القضاء ، بأمر السلطان جقمق .

لكن السلطان جقمق أُعْجِبَ بلباقة ابن عرب شاه ، وهو الذى ولد فى دمشق سنة ١٣٩٢ م ، ثم غادرها وأسرتة سنة ١٤٠١ م إلى سمرقند ، حين غزا تيمورلنك دمشق ، وأخذ كثيراً من أهلها وناسها إلى عاصمته فى بلاد ما وراء النهر . وهناك تعلم ابن عرب شاه الفارسية والتركية والمغولية ، وتمكن منها جميعاً ، حتى أصبح قادراً على إجادة النظم فى كل منها ، بالإضافة إلى إجادته النظم فى العربية أيضاً .

وعاش ابن عرب شاه أخصر طول حياته ، فزار بلاد المغول وتركيا والشام وبلاد الحجاز ، حيث حج إلى مكة سنة ١٤٢٨ م . وجاء ابن عرب شاه إلى القاهرة سنة ١٤٣٩ م ، فأكرم وفادته ابن حجر والسخاوى وأبو المحاسن ، وأمضى هو المدة التى قضاهما بالقاهرة فى البلاط السلطاني بدعوة من السلطان جقمق . وكتب ابن عرب شاه بعد ذلك رسالة فى مدح السلطان سماها باسم التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر ، القائم بنصرة الحق ، أبى سعيد جقمق . وعلى الرغم من المبالغة الشديدة فى هذا الكتاب الذى صور فيه ابن عرب شاه مولاه كأنه صورة مجسدة للفضيلة ، بل رفعه فيه إلى مرتبة الأولياء والقديسين ، فإن الكتاب إلى جانب ذلك يشتمل على تفاصيل تاريخية قيمة ، ونقد للحوادث الماضية . أضف إلى ذلك أن ابن عرب شاه كتب هذا الكتاب — على قوله — ليكون ترياقاً ضد السموم والخبائث التى أولغ منها قلمه فى

كتاب سابق ألفه في مساوىء تيمورلنك ، وسماه باسم عجائب
المقدور في أخبار تيمور ، — يريد بذلك أنه إذا صور في الكتاب
الأول حياة عملاق أعرج مغرى بالتخريب والهدم ، فإنه يرسم في
الكتاب الثانى صورة سلطان عادل كامل .

وزار ابن عرب شاه مدينة القاهرة عدة مرات بعد ذلك ،
غير أنه لم يلق من السلطان جقمق شيئاً من حسن المعاملة ، على غير
انتظار ، وهو الذى أطنب في مديحه ، إذ أوحى إلى جقمق أنه
يعمل ضد مصالح الدولة المملوكية . ثم وشى به أخيراً عند السلطان
بأنه يعمل ضد مصالح جقمق نفسه ، فأمر بالقبض عليه وامتحن
على يده ، وأرسل إلى سجن المقشرة سنة ١٤٥٠ م ، وهو في شدة
المرض . وعلى الرغم من تبرئته من جميع ما نسب إليه من التهم ،
حتى إنه لم يمكث بالسجن سوى خمسة أيام ، لم يلبث أن قضى
مهموماً حزيناً بالقاهرة في شهر أغسطس من تلك السنة .

إلى جانب أولئك المؤرخين بقى اثنان ممن عاصروا المقرئى ،
وهما وإن لم يشغلا بكتابة التاريخ فكلّ منهما خلف مؤلفاً له
قيمة واضحة في فهم أصول الحكم وطرق الإدارة بمصر والشام في
العصور الوسطى ، وأولهما خليل بن شاهين ، وثانيهما الخالدى
الذى ألف في ديوان الإنشاء بالقاهرة كتاباً لا يعرفه إلا الأقلون
حتى الآن .

أما خليل بن شاهين فولده سنة ١٣٧٢م ببيت المقدس ، حيث

عاش أبوه أميراً من أمراء المماليك في تلك النيابة الشامية . وجاء ابن شاهين إلى القاهرة في شبابه ، فدرس الحديث على ابن حجر ، غير أنه ترك ممارسة العلم ، والتحق بالفرقة المملوكية المسماة باسم فرقة أولاد الناس ، وهي الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك . وسرعان ما مضى ابن شاهين قدما في طريق الوظائف ، حتى إنه جمع في يده سنة ١٤٣٤ م وظيفة النائب والحاجب والمشد بالإسكندرية ؛ ويرجع بعض الفضل في ذلك التعدد إلى أنه كان حما للسلطان برسباي . وتقلب ابن شاهين بعد ذلك في كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام ، حتى إذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق برتبة أمير مائة مقدم ألف ، وهي أكبر الرتب الحربية في دولة المماليك الأولى والثانية .

أما مؤلفاته فأهمها كتابه المسمى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، كتبه ابن شاهين في مجلدين يضمّان بين دفتيهما أربعين فصلا ، ثم اختصره في مجلد واحد إلى اثني عشر فصلا ، وذلك في عصر السلطان جقمق . وهذا المختصر هو الذي بقي حتى الآن ، وفيه تناول المؤلف الدستور المملوكي ، وبين الوظائف الحربية والإدارية في دولة المماليك الثانية التي تقلب في مناصبها حتى قبيل وفاته بالقاهرة في نوفمبر سنة ١٤٦٨ م .

وأما الخالدي ، واسمه بهاء الدين محمد العمري الخالدي ، فلا يعرف عنه حتى الآن (فيما أعلم) سوى أنه مؤلف لكتاب اسمه

المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الإنشاء ، وهو كتاب مشابه فى موضوعه لكتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لشهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، ولكتاب التعريف بالمصطلح الشريف للمؤلف نفسه ، ولكتاب صبح الأعشى للقلقشندي المتوفى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . ومن الجلى لكل من يطلع على هذا الكتاب المخطوط أن مؤلفه تقلب كالعمرى والقلقشندي فى وظائف ديوان الإنشاء بالقاهرة مدة طويلة ، بدليل معرفته أسماء الدول والأقطار التى انقطعت رسائلها عن مصر فى عصره ، وبدليل إلمامه التام بأساليب الكتابة والدبلوماسية (diplomats) إلى مختلف الملوك فى الشرق والغرب .

ومما وضح لكاتب هذه السطور أثناء قراءته لهذا المخطوط أن مؤلفه كتبته فى منتصف عهد السلطان برسباى تقريباً ، أو بعد سنة ١٤٣٢ م على التحقيق ، فهو حلقة ظلت حتى الآن مفقودة عند المشتغلين بتاريخ النظم المصرية فى العصور الوسطى ، وبه معلومات انفرد بها عن سبقه من المؤلفين فى هذه الناحية من التاريخ المصرى .

الفصل الثاني

أبو المحاسن ومعاصروه

احتلّ أبو المحاسن^(١) مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقرئى والعينى ، أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . واسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الجوينى ، ومولده بالقاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م ، بدار الأمير منجك اليوسفى ، قرب مدرسة السلطان حسن ، بحى القلعة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان برقوق ؛ وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى (يونانى) جميل الطلعة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن مماليكه ، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه إلى فرقة الخاصكية ، وهى إحدى فرق المماليك السلطانية . ثم أصبح تغرى بردى موضع رعاية مولاه ، فتقلد كثيراً من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ، واشترك فى حوادث ذلك العهد حتى وفاة السلطان برقوق سنة

(١) انظر (Wiet : L'Historien Abu-l-Mahasin) فى Bulletin

de l'Institut d'Egypte, XII., 2 me fasc., 1930) وراجع كذلك

(Popper: Abu-l-mahasin) فى طبعة جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة

الأمريكية لكتاب النجوم الزاهرة (Vol. VII. pp. XII—XV) .

١٣٩٨ م . وقام تغرى بردى أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير في حياة الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسؤوليات كبيرة ، إذ تولى نيابة دمشق ، وهى أكبر النيابات في الدولة ، وأسهم في مدافمة تيمورلنك عن مدن الشام ، وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية . ثم تولى تغرى بردى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام ، واتهم أثناء ولايته عليها بتهمه الخيانة العظمى ، فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركان ، حيث أقام مدة منفيا . ثم عفا عنه السلطان فرج بعد ذلك ، وطلب إليه العودة إلى القاهرة ، وولاه أتابكية العساكر بالديار المصرية ؛ بل تزوج السلطان من كبرى بناته ، واسمها فاطمة ، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة ؛ وما زال تغرى بردى على نيابتها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م ^(١) . وفي تلك السنة نفسها مات السلطان فرج قتيلا بسيف الشرع ، على يد الخليفة العباسي والقضاة الأربع والأميرين نوروز وشمس ، واعتلى عرش السلطنة المملوكية الثانية بعده ثاني هذين الأميرين ، وهو المعروف باسم السلطان المؤيد شمس . وترك تغرى بردى ستة أبناء وأربع بنات ، منهم خوند فاطمة زوج السلطان المتوفى . وكان أبو المحاسن أصغر أولئك

(١) ترجم أبو المحاسن لأبيه تغرى بردى ترجمة وافية في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٥ .

الأولاد والبنات جميعاً إذ توفى والده وهو فى الثانية من عمره ، فتولى تربيته قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفى ، وهو زوج أخته الثانية واسمها بيرم . ثم توفى ابن العديم ، وتزوجت بيرم من قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافى ، فأكمل البلقينى تربية الصبي إلى أن كبر وانتشى وترعرع . ثم توفى البلقينى سنة ١٤٢١ م ، فصار أبو المحاسن تحت كنف جماعة من أكابر مماليك أبيه ، فتعهدوه بما حازه من رعاية وعيش وتعليم مدنى وحربى . وحكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوماً وهو فى الخامسة من عمره إلى حضرة السلطان شيخ ، بعد أن علمه بعض من معه أن يطلب إلى السلطان أن يعطيه " خبزاً " ، ومعناه فى مصطلح الدولة المملوكية إقطاع من الأرض ؛ وهذه عبارة أبى المحاسن : " فلما جلست عنده وكلنى سألته فى ذلك ، فغمز من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدرى ، فأناه برغيف كبير من الخبز السلطانى ، فأخذه بيده وناولنيه ، وقال : خذ ، هذا خبز كبير مليح ، فأخذته من يده وألقيته إلى الأرض ، وقلت : أعط هذا للفقراء ، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلاحين ، يأتون بالغنم والأوز والدجاج ، فضحك حتى كاد أن يغشى عليه ، وأعجبه منى ذلك إلى الغاية ، وأصر لى بثلاثمائة دينار ، ووعدنى بما طلبته وزيادة ^(١) " .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

والواقع أن أبا المحاسن نشأ في بسطة من العيش ، وليس من الحق قوله في موضع آخر من كتابه هذا إنه عاش فقيراً من غير مال ولا عقار بعد وفاة أبيه ، لاستيلاء السلطان فرج فعلاً على جميع ما خلفه تقرى بردى من ثروة وممتع — وإقطاع طبعاً . ذلك أن أوصيائه كفولوا نفقته وتنشئته وتعليمه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره ، بمصر والشام والحجاز ، ومنهم المقرئ والعيني وابن حجر وابن عربشاه بالقاهرة ، وابن ظهيرة وابن العليف بمكة ، والمرعشي وابن الشماع بحلب ، وكثير غيرهم من أصلاء القرن الخامس عشر الميلادي بالشرق الأدنى من علماء المسلمين . على أنه أحب التاريخ من دون العلوم التي درسها وأجيز له فيها ، فلأزم المقرئ — والعيني أيضاً — من أجل ذلك ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما ونمطهما في التحصيل والكتابة الغزيرة ؛ واجتهد في ذلك إلى الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، وهذا فضلاً عن معرفته باللغة التركية^(١) .

غير أن تفضيل أبي المحاسن لدراسة التاريخ خاصة يرجع في الغالب إلى ما استقام للعيني بواسطته من المسكاة السامية التي شغلها في بلاط السلطان برسبای ، إذ طمح هو أيضاً في مثل ذلك لنفسه ،

(١) انظر تفصيل هذا كله في مقدمة كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة القاهرة) ، ج ١ ، ص ٣ — ٢٨ .

بالوسيلة عينها لدى سلطان مقبل . فلما مات القرىزى سنة ١٤٤٢ م ،
والعيني بعده سنة ١٤٥١ م ، خلا الجو لأبى المحاسن ، ولم يوجد
من ينافعه فى زعامة المؤرخين فى عصره . وأشار أبو المحاسن
نفسه إلى ذلك فى غبطة ورضى ، وجسارة مشوبة بغرور ، إذ كتب
بصدد وفاة العيني : ” ولما انتهينا من الصلاة على قاضى القضاة
[العيني] ، قال لى بدر الدين محمد بن عبد المنعم الحنبلى : خلا لك
البرّ بيّض واسفر^(١) . فلم أرد عليه ، وأرسلت إليه بعد عودتى
إلى منزلى ورقة بخط العيني هذا ، يسألنى فيها عن شيء سئل عنه
فى التاريخ من بعض الأعيان ، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه
وتشتت ذهنه ، ثم أبسط فى الشكر والمدح والثناء إلى أن قال : وقد
صار المعول عليك الآن فى هذا الشأن ، وأنت فارس ميدانه وأستاذ
زمانه ، فاشكر الله على ذلك ؛ وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة
فى سنة تسع وأربعين^(٢) وثمانمائة “ ، أى قبل وفاة العيني بسنتين .
ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين فى مصر لأبى
المحاسن ، فإنه لم يتفق له أن صار نديماً دانياً لسلطان من سلاطين
الماليك ، يقرأ له التاريخ فى أمسياته ، مثلما كان العيني مع السلطان

(١) كذا بالأصل (انظر الحاشية التالية) ، والجملة دعابة لفظية
مستمدة من عبارة ” يضى واصفرى “ المشهورة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص
٣٦٦ ؛ وانظر كذلك أول صفحة من كتاب حوادث الدهور — طبعة
كاليفورنيا — حاشية ه بتلك الصفحة .

برسبای . على أنه تقلد كثيراً من الوظائف في عهود مختلفة ، وكان له من مولده وتنشئته ، وقراباته ومصاهراته وصدقاته ، ما جعله من رواد البلاط السلطاني . ولذا كان أبو المحاسن من المختلفين إلى حضرة السلطان برسبای ، حتى صحبه في حلقات الصيد والنزهة والسرحة ؛ وحسنت صلاته بالسلطان جقمق ، حتى انتظمت زيارته مجلسه مرة كل أسبوع ، ضمن رجال العلم والأدب ؛ وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال ، حتى إن زيارته لبلاطه لم تعد المرة أو المرتين في العام كله . ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشقدم الرومي ، بفضل وساطة أحد الأمراء السكبار . وعاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباي ، وليكتب في حوادثها بما يدل على أنه لم يلق في بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولا .

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة — التي صرف معظمها وهو يحوم حول البلاط السلطاني — أن يكتب كثيراً في التاريخ والتراجم ، وأن يبرع في فنون الفروسية ، من لعب الرمح ورمي النشاب ، وسوق البرجاس ولعب الكرة بالصوالجة (Polo) ، وأن يحدق علم النغم والضروب والإيقاع ، وأن ينظم الشعر في العربية والتركية ، وأن يحج إلى مكة مرتين سنتي ١٤٢٢ و ١٤٤٥ م . وقام أبو المحاسن في حجته الثانية

بوظيفة باش الحمل المصرى ، وهى أقل رتبة من وظيفة أمير الحمل ؛ وجرت العادة أن يكون لهذا الأمير رجلان فى معيته يسمى أحدهما باش الميمنة ، وثانيهما باش الميسرة ، وكان قايتباى الذى تسلطن فيما بعد على الميسرة^(١) فحسب .

أما مؤلفات أبى المحاسن فعددها اثنا عشر كتاباً على قول ابن الصيرفى وغيره ممن كتبوا ترجمته ، وبقي بين أيدينا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، أشهرها كتاب عظيم فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ١٤٦٧ م ، واسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى سبع مجلدات ضخمة^(٢) . وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرجو محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق ذلك الرجاء ؛ وكان فى عزم أبى المحاسن أن يختمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجعل منه ما جعل العيني من عقد الجمان^(٣) . وكثيراً ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه ، واسمه المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، وهو كتاب حافل

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٢٣ .

(٢) ذكر أحد المعاصرين أن أبا المحاسن اختصر هذا المؤلف فى مجلد اسمه الأنوار الظاهرة من الكواكب الظاهرة ، غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب فى المكتبات التى زرتها حتى الآن .

(٣) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ،

بتراجم الأعيان والناهين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما ، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى ، من سنة ١٢٥٢ م إلى عصره ؛ ورتبه أبو المحاسن ترتيباً أبجدياً ، وأراد به أن يكون ذيلاً وتكملة لكتاب الوافى بالوفيات ، لخليل بن أبيك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ثم اختصر أبو المحاسن هذا المؤلف فى كتاب سماه الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وجعل لهذا المختصر مختصراً سماه مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة ، فجاء هذا الكتاب الأخير كالهيكل العظمى ، لا يوجد به سوى تاريخ مقتضب للسيرة النبوية ، يتلوه بيانات جافة بأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين والفاطميين ، ومنّ وليهم على مصر إلى سنة ١٤٣٨ م . ولأبى المحاسن مؤلف آخر يُكثر من الإشارة إليه كذلك فى كتاب النجوم الزاهرة ، واسمه حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، وهو ذيل لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئى ، ورتبه على السنين والشهور والأيام كترتيب السلوك ، أى أن أبا المحاسن بدأ به من حيث انتهى ذاك إلى سنة ١٤٥١ م . لكنه خالف المقرئى وغيّره قليلاً فى طريقته من الإطناب فى الحوادث والاقتصار فى تراجم الوفيات ، فأطال فى كل منهما ما استطاع إلا ما سبق له استيفاءه فى كتابيه الأولين ، " لتكثر الفائدة من الطرفين " ، على قوله فى مقدمته لذلك الكتاب الأخير .

ومن مؤلفات أبي المحاسن كذلك كتاب اسمه نزهة الرأى
في القاريخ ، وكتاب البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر ؛
وهذان عدا كتب أخرى^(١) لا صلة لها بصميم التاريخ ، وهي
كتاب نزهة الألباب في اختلاف الأسماء والألقاب ، وكتاب
حلية الصفات في الأسماء والصناعات ، وكتاب البشارة في تكملة
الإشارة ، وكتاب الانتصار للسان التتار ، وهو رسالة في معاني
اللغة التركية ، وكتاب في الرياضيات والموسيقى ، وكتاب
السكر الفاضح^(٢) والعطر الفائح في التصوف .

ونقد ابن الصيرفي والسخاوى مؤلفات أبي المحاسن في عنف
وشدة ، ورماه كل منهما بما خال أو شاء من تهم يستشف القارىء
في عبارتها شيئاً من الغيرة والحسد . ومن ذلك قول السخاوى ،
ونصه : ” وبالجملة فقد كان [أبو المحاسن] حسن العشرة ، تام
العقل — إلا في دعواه فهو حق — . . . لطيف المذاكرة ،
حافظاً لأشياء من النظم ونحوه ، بارعاً حسبما كنت أتوهمه
في أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفرداً بذلك ،

(١) جميع الكتب المقدمة موجودة ، كاملة أو ناقصة ، مطبوعة
أو مخطوطة ، في مختلف مكتبات العالم ، وما عداها فغير مقطوع بوجوده
حتى الآن .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في مكتبة الإسكوريال ،
تحت رقم ٣٦٧ .

لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تكثر فيه أوهامه ، وتختلط ألفاظه وأقلامه ، مع سلوك أغراضه ، وتحاشيه مجاهرة مَن أدبر عنه بإعراضه ، وما عسى أن يصل إليه^(١) تركي ! ” . وردّ ابن الصيرفي هذا المعنى ، وزاد عليه أن أبا المحاسن كان ” كلما فرغ من تصنيف يتوجّه به إلى من يعرف العربية ، فيصلحه له ويصير له به مزية “ .

ومع هذا وغيره من أقوال المعاصرين يتجلى من كتب أبي المحاسن أنه كان مؤلفاً واسع المعرفة ، شديد التدقيق والتحري في كتابته ، وأنه كان مجتهداً كدوداً ، أميناً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين في العصور الوسطى بالشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة . يضاف إلى ذلك أنه إذا أخذنا نقد أبي المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم في كتيبه مقياساً لخلقهم ، وذكرنا قول ابن إياس فيه ، وهو الذي خلفه في زعامة المؤرخين بمصر ، وضح لنا حقاً أنه كان ” رئيساً حشماً فاضلاً ... له اشتغال بالعلم ... ، مشغوفاً بكتابة التاريخ^(٢) “ ،

(١) السخاوى : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور (طبعة القاهرة) ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

بدليل أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته في
يؤنيه سنة ١٤٧٠ م .

وعاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصرى ،
وأنفوا فيه مؤلفات قيمة ، وهما بحسب الترتيب الزمنى ابن الصيرفى
والسخاوى ، وكل منهما صاحب ترجمة طويلة لأبى المحاسن تم
عن كثير مما قام بين مؤرخى ذلك القرن كله من تنافس وغيره ،
وحسد أحياناً وسوء دخيلة .

وكان ابن الصيرفى أكبر الرجلين عُمرًا ، وإن بدا أقلهما شهرة
وتراثًا فى التأليف ، واسمه نور الدين على بن داود الصيرفى الخطيب
الجوهري الإسرائيلى الحنفى . وعرف بين معاصريه باسم ابن
الصيرفى — وابن داود كذلك . وكان مولده بالقاهرة سنة
١٤١٦ م ، أى اثنى عشرة سنة قبل ميلاد السخاوى ، وأبوه
داود صيرفى بدواوين الدولة المملوكية فى عهد سلطان لم تعيينه
المراجع التى بأيدينا حتى الآن ، وتوفى داود هذا سنة ١٤٤٩ م .

نشأ ابن الصيرفى فى كنف والده ، وتعلم تعلمًا يسيرًا ، كما يفهم
من ترجمة السخاوى^(١) له ، مع أنه تعلم لابن حجر المسقلانى ،

(١) انفرد السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٢١٩)
بترجمة وافية لابن الصيرفى ، وليس فى غيره من المراجع التى أعلمها ، مثل ابن
لباس (بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ؛ ص ٢٨٨) ومؤلفات
ابن الصيرفى التى لم يصل إلينا منها سوى النزر القليل ، ما يضيف كثيرًا إلى
ما كتبه السخاوى .

ولازم مجلسه في الإملاء وغيره ، وتحرّص الركوب في خدمته ،
حتى استثقله لذلك جماعة من تلاميذه . ويظهر أن السخاوى —
وهو كذلك تلميذ لاحق لابن حجر — كان ممن ضاق بتلك
العلاقة بين ابن الصيرفي وشيخه ، كما عظم عليه توليته خطابة
جامع السلطان برقوق ، وذهب ابن حجر للصلاة خلفه هناك ،
ولذا جاءت ترجمته لابن الصيرفي مملوءة غمطاً وسخرية .

مارس ابن الصيرفي التجارة بعد وفاة أبيه ، مع بقائه على
الاشتغال بالعلم ، وقيامه على وظيفة الخطابة بجامع السلطان برقوق
وغيرها من الوظائف الصغرى ؛ فتكسب بسوق الجوهريين —
ومن هنا جاء تلقيبه بالجوهري — ، وابتنى بعض الدور بحكر الشاى
بالقاهرة وأسكنها بالأجرة . ثم آل أمره يوماً إلى أن نفذ غالب
ما عنده واحتاج ، فولاه قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة
الحنفى نائباً للحكم (قاضياً) ، واشتغل بنسخ الكتب وارتفق
بذلك ، فنسخ كثيراً من كتب شيخه ابن حجر وأبى المحاسن
والسخاوى في التاريخ وغيره . ومن ثم كان اشتغاله بالتأليف
في التاريخ بعد أن تقدّمت به السن ، وفسدت علاقته بالسخاوى
وأبى المحاسن من حين ذاك ، فشى السخاوى بسيرته عند الناس ،
وامتنع أبو المحاسن من إعارته كتباً من مكتبته ، بل أخفى عنه
تصانيفه مخافة أن ينقل منها . على أن ذلك لم يقل من عزم ابن
الصيرفي ، أو يصرفه عن الكتابة ، فألف كتاب نزهة النفوس

والأبدان في تواريخ الزمان ، وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨٢ م ، واختتمه عند ١٤٤٦ م ، وهي السنة الثامنة من عهد السلطان جقمق ؛ ثم كُتِبَ أنباء الحصر في أبناء العصر ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء التاسع فقط ؛ ثم كُتِبَ سيرة الأشرف قايتباي ، وهو غير مقطوع بوجوده ، ولعله المخطوط الكائن بالمتحف البريطاني بلندن لغير مؤلف معروف . ولابن الصيرفي كذلك كتاب في السيرة النبوية سماه الجوهرية ، وراه أبو المحاسن وأنهاء مطالعة وقرّظه وهو راغم بخطه ، إلى جانب خطوط الكثير من المقرّطين ، على قول ابن الصيرفي نفسه .

غير أن السخاوى لم يشأ إلا أن يحطّ من قدر ابن الصيرفي ومؤلفاته ، وربما قصد بذلك أن ينتقم لنفسه منه ، لمزاحمته إياه في صحبة ابن حجر وملازمته ، فقال : ” إنه نصب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخاً ، لكونه لا تميّز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقبح ، بحيث ... صار الفقهاء والقضاة به مثلة ... ؛ وبالجملة فهو من سيئات الزمان ، غنى بشهرة سيرته عن مزيد البيان ، وجهله واضح الظهور (١) ” .

ولابن إياس في ترجمته القصيرة لابن الصيرفي نقدٌ مشابه ، على الرغم مما فيه من اعتدال في اللفظ ، ونصه أن ابن الصيرفي

”كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ولا عن راوٍ ، وله في تاريخه خبطات كثيرة ، وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه .. وكان لا يخلو من فضيلة^(١)“ .

على أن ابن الصيرفي لا يستحق هذه العبارات المريرة من معاصريه ، يشهد بذلك السخاوى نفسه في ثنايا ترجمته له حين يعجب من كثرة مقرظيه ومريديه من أعلام عصره ، ويشهد به كذلك كاتب هذه السطور بعد أن قرأ ما استطاع قراءته من المؤلفات المذكورة ، إذ وجد بها كثيراً من تفاصيل الحقائق التي توجد مقتضبة مختصرة في كتب الآخرين ، كأبي المحاسن والسخاوى وابن إياس . وكانت وفاة ابن الصيرفي في يونيه سنة ١٤٩٤ م .

أما السخاوى واسمه أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ... السخاوى ، نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، فمواله سنة ١٤٢٧ م ، بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم بالقاهرة . وعاش جده محمد شيخاً فقيراً صالحاً يتكسب بتجارة يسيرة في سوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة ، ويكثر من الاختلاف إلى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للإفادة والاعتبار . وكان أبوه عبد الرحمن كذلك في معيشته وتكسبه وغشيانه مجالس رجال الدين ، وطابت صلته ببعضهم لعلهم يتقوا

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

وتصوفه^(١) . ولذا كان معظم شيوخ السخاوى ومعلميه من رجال الدين أصحاب أبيه ، ومنهم ابن حجر الذى اختص به وأحبه ، لسبق الصلة بين والده وابن حجر ، وقرب منزله من منزله . ولزم السخاوى ابن حجر أشد الملائمة ، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره ، وأخذ عنه أكثر تصانيفه فى الحديث والتاريخ والتراجم ، وهذا فضلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ . وحلا للسخاوى أن يعدّ هذه المقروءات والمسموعات وأصحابها ، عدداً دقيقاً فى ترجمته لنفسه فى كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، وهى ترجمة ضافية فى ثلاثين صفحة كاملة ، وليس فى كتابه كله ترجمة تشبهها أو تقرب منها فى السعة والإفاضة "والتمدّح" بأقوال المعجبين به من المعاصرين^(٢) .

وعُرف السخاوى عند بعض "أناس مخصوصين" باسم ابن البارد ، وهى تسمية اشتهر بها جدّه وأبوه كذلك لسبب غير واضح تماماً ، لعله فيما يخص السخاوى على الأقل أنه كان عظيماً عند نفسه إلى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين ، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد ، ورماهم فى غير واحد

-
- (١) ترجم السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ، ج ٧ ، ص ١٧٥ — ١٧٧) لكل من جدّه وأبيه ترجمة تفيض حناناً وبرّاً ، وهى العمدة الوحيدة لكاتب هذه السطور فيما كتب هنا بصددما .
- (٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٢ — ٣٢ .

من مؤلفاته بالقصور وضعف الرواية والبيان . ومع هذا فالسخاوى نشأ وعاش متمتعاً برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ، وبادل الشيخ تلميذه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ، فصار يرسل إليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره في بيته ليقرأ عليه ، بل قال فيه ، ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : " إنه مع صغر سنه ، وقرب أخذه ، فاق من تقدم عليه بجده واجتهاده ، ونحريه وانتقاده ^(١) " وأكثر من هذا أن ابن حجر قام ليعخدم بنفسه في حفل عرس السخاوى سنة ١٤٤٤ م ، وجهد في توظيفه بوظائف تدريس الحديث التي أهله لها أحسن تأهيل .

ثم توفي ابن حجر سنة ١٤٤٩ م ، فعزم السخاوى على الرحيل عن مصر إلى الشام ، ليسلو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل هناك . غير أن أبويه ثنياه عن عزمه هذا ، فظل بمصر مواصلاً دراسة الحديث ، وطفق يتنقل في سبيل ذلك بين المدن الكبرى كدمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية وغيرها . واجتهد السخاوى أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث بالقاهرة ، مستعيناً بأصدقاء أستاذه الراحل . ثم انتهى به الأمر إلى الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢ هـ . فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ، وزار المدينة . وتنفل السخاوى ١٤٥٣ م بعد ذلك بين مصر

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣٠ .

والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م ،
وحرص على الإقامة بمكة مدة إثر كل حجة ، كما استقر بمصر أحياناً
لتدريس الحديث بمدارس القاهرة ، ودأب أثناء ذلك كله على
التأليف في الحديث والتاريخ .

واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدي كاشف الوجه القبلى
على عهد السلطان خشقدم ، ويشبك هذا هو صاحب الدوايرية
الكبرى زمن السلطان قايتباى . وكان يشبك أعظم شخصية
في الدولة المملوكية مدة حكم قايتباى ، ويده فوق وظيفته
الكبرى خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق بها من أوقاف
وأموال ومدارس ومحسوبة ، ومن ذلك تعيينه السخاوى على
إحدى وظائف تدريس الحديث التى تعب قبلا في الحصول على
مثلها أياما تعب ، وسعيه له قبل ذلك عند خشقدم ليكون مقرئاً
للحديث بعد إمام السلطان . ومع هذا شاء السخاوى أن يذكر
صلته بذلك الأمير الكبير في عبارة كلها كبرياء وترفع ، وأن يقرر
أن يشبك سأل في البيت عند السلطان خشقدم ليلتين في
الأسبوع ، ليقرأ له نخباً من التاريخ ، كما فعل العيني مع السلطان
برسباى ، فتنصل وأبى ، وأن يشبك التمس منه أن يحضر إليه
ليقرأ له تصانيفه ، فامتنع كذلك^(١) . وهذا نص عبارة السخاوى في

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣١ .

ترجمته لهذا الأمير البذول المحسن : ” وقد تكرر اجتماعى به ، وكان حريصاً على ذلك ، بحيث رغب فى تحصيل أشياء من تصانيفى ، وأسمع بعض أولاده منى بحضرته [كتاب] المسلسل [فى الحديث] ، ولو وافقته على مزيد الاجتماع به لتزايد إقباله ، ولكن الخيرة فيما قدر^(١) .“

وعنى السخاوى بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى فى أربع صفحات من ترجمته لنفسه^(٢) ، ومنها فى التاريخ كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، فى أربعة أجزاء^(٣) ، وهو كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقرئى المشهور ، وكان تأليفه إياه إجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة الدواديرية الكبرى ، أى أن السخاوى كتبه زمن السلطان قايتباى . ويظهر أن السخاوى شغف بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها ،

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ .

(٢) انظر السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١٥ — ١٩) حيث توجد قائمة طويلة بأسماء كتبه ورسائله ومقالاته ، وهى جديرة ببحث الباحثين واستقصاء الراغبين فى إحياء الكتب العربية المبعثرة بمختلف مكتبات العالم .

(٣) طبع هذا الكتاب بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبتدى من سنة ٨٤٥ هـ وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن التاسع الهجرى ، على قول السخاوى نفسه ، وهذا فضلاً عن إشارات المعاصرين بصدده .

إذ ألف كتاب وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام تكملة
لكتاب الذهبي المؤرخ ، وكتب الذيل المتناهي تكملة لتأليف
ابن حجر في قضاة مصر ، كما ألف الذيل على طبقات القراء تكملة
لكتاب الجزري . أما ملخصاته فمنها كتاب المبتقى من تاريخ
مكة للفاسي ، وكتاب تلخيص تاريخ اليمن لمؤلف لم يذكره ، ولعله
الفاسي كذلك .

وللسخاوي في التاريخ كذلك كتاب الإعلان بالتوبيخ
لمن ذم التاريخ ، وهو مقالة طويلة في قواعد الجرح والتعديل
(historiography) عند المؤرخين ، وبه صفحات ضافية في تاريخ
التاريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمستغنين بالحكم ومصائر الدول .
وله في التراجم كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، والجواهر
والدرر في ترجمة ابن حجر ، والقول المنبى في ترجمة ابن عربي ،
وغير ذلك كثير في مختلف العلوم والفروع ، ولا سيما الحديث .

على أنه لا بد هنا من التعريف بكتاب الضوء اللامع لأهل القرن
التاسع ، إذ هو معجم زاخر في اثني عشر جزءاً مطبوعة ، للنساء
المسلمات منها جزء بتمامه . وهذا الكتاب نخر مؤلفات السخاوي
ولا ريب ، برغم ما ابتلى به مؤلفه من تصغير الكبير وتحقير
الصغير ممن ترجم لهم ، حتى أبسل نفسه للوم المعاصرين وتجريح
اللاحقين ، ومن ذلك قول ابن إياس فيه بأنه " ألف تاريخاً فيه

كثير من المساوى في حق الناس^(١) ، وقول قرينه السيوطي مستفهماً مستنكراً : ” ماترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكاير وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوى وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأعراض هي الأغراض ، جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير . . . (٢) “ . واشتدّت الخصومة بين السيوطي والسخاوي مدة ، واضطرم الجدل بينهما حيناً ، فرشق كل منهما صاحبه بأنواع التهم ، حتى حال بينهما الموت ، إذ توفي السخاوي بالمدينة سنة ١٤٩٧ م ، وبقي السيوطي بعده تسع سنين .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة — ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) السيوطي : السكاوي على السخاوي . (مخطوطة بدار الكتب الملكية المصرية ، رقم ١٥١٠ أدب) .

الفصل الثالث

ابن إياس ومعاصروه

ابن إياس ثالث المؤرخين الذين تداولوا الزعامة في حلبة التأليف في التاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، واسمه محمد بن أحمد بن إياس المصرى الحنفى ^(١) ، ومولده بالقاهرة سنة ١٤٤٨ م ، إحدى وعشرين سنة قبل وفاة أبى المحاسن . وابن إياس شبيهه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، على أن ابن إياس كان أقدم عرقاً فى المجتمع المملوكى ، فبينما لا ندرى من أصل أبى المحاسن سوى أخبار أبيه وأمه منذ مجيئهما إلى مصر فى عهد أستاذهما السلطان برقوق ، إذا بنا نعرف الجد الأكبر لابن إياس ، واسمه إزدصر العمرى الفاصرى أبو ذقن ، الشهير بالخازندار . وكان إزدصر من أمراء الدولة

(١) أورد بروكلمان Brockelmann : Gesch. der Arab. Litt.

II. p. 275) اسم ابن إياس كاملاً كالآتى : ” أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين (أو شهاب الدين) الناصرى الجركسى الحنبلى “ ، وكرر نسبته إلى الحنبلة فى ملحقه للكتاب المتقدم . (Ibid : Supp. II. P. 205) ، وهو خطأ يبينه أن حنبلياً لم يكن بين المعروفين من مشايخ ابن إياس .

المملوكية الأولى زمن السلطانين حسن وشعبان، وتولى مدّة حكم كل منهما وظيفة أمير سلاح ، ونال في عهد ثانيهما حظوة وثقة خاصة ، فتقلب في نيابات صغد وطرابلس وحلب ، واختير أواخر أيامه لنيابة دمشق ، ثم عاجله الموت وهو في الطريق إليها سنة ١٤٦٦ م . ولدينا أيضاً معلومات قليلة بصدد جدّ ابن إياس لأبيه ، واسمه إياس الفخري ، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، وقد تأسر سريعا ، وتولى وظيفة الدوادار الثاني زمن السلطان فرج ابن برقوق .

أما والد ابن إياس ، واسمه شهاب الدين أحمد ، فكان على قول ابنه من مشاهير أولاد الناس ، أى أنه من أفراد تلك الفرقة المملوكية التي ضمت أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة ، حيث جرت العادة أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة في النظام الحربى المملوكى رعاية لسلفه ، بشرط أن يندمج في الرديف السلطاني ، ويكون صالحاً للخدمة في إحدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم^(١) . وذكر ابن إياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من المحبين إلى كثير من أمراء الدولة وأربابها ، وأنه عاش نحواً من أربع وثمانين سنة ،

(١) راجع القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥) ، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مقالة ابن إياس .

وأنه أنجب في حياته الطويلة خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث ، بقى منهم بعد وفاته سنة ١٥٠٢ م بنت وصبيان ، أحدهما محمد بن إياس نفسه ، وثانيهما الجمال يوسف . أما البنت فلعلها هي التي مات عنها زوجها الأمير قرقاس المصارع ، وهو من أمراء العشرات زمن السلطان قايتباي ، ووظيفته أمير آخور رابع في البلاط السلطاني ، وكانت وفاته سنة ١٤٧٢ م في وقعة البيرة على نهر الفرات ، حيث ظفر الجيش المملوكي بقيادة الأمير يشبك بن مهدي بجيوش حسن الطويل (أوزون حسن) ملك التركان المعروفين باسم الشاة البيضاء (Ak Koyunlu) . وأما الصبي الجمال يوسف فكان بالزردكاشية (هندسة المدفعية) ، على عهد السلطان قانصوه الغوري ، ويظهر أنه كان خبيراً بفنه ، ويمده وظيفة رئيسة في عمله .

يتضح من هذه الإشارات المنوعة أن ابن إياس نشأ في وسط مملوكي بحت ، وأنه متّ إلى بعض رجال الدولة المملوكية في عصر قايتباي والغوري بصلة المصاهرة والقرابة . غير أنه مما يدعو إلى العجب أن أحداً من معاصريه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وأن مبلغ ما يعتمد عليه لإنشاء ترجمة حديثة لهذا المؤرخ الكبير لا يعدو تتفأ مبعثرة في كتيبه التي ألفها ؛ وعشأ يرود الباحث غير ذلك من الكتب المعاصرة والمتأخرة ، كمؤلفات الشيخين جلال الدين عبد الرحمن السيموطي وعبد الباسط بن خليل الحنفي ،

وهما من أساندة ابن إياس بتقريره ، وكؤلفات السخاوى والغزى والأعظمى والبورينى واليمنى والمحبى والمرادى ، وهم أصحاب كتب التراجم والسير للقرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لابن إياس لا يعجز الكاتب أو يعييه عن محاولة الكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوبة بريح وإن جاء سليماً ، إذ يصبح اعتماده مقصوراً على ما هنالك من إشارات المؤلف عن نفسه ورجال عصره فيما ألف من كتب ، فيستشف منها موقفه من الحوادث ، ويسبر بها دخائل شخصيته وأخلاقه . ومن تلك الإشارات الخاصة بهوية ابن إياس أنه نشأ كأبيه شهاب الدين أحمد ، وكأبى المحاسن كذلك ، فى فرقة أولاد الناس (١) . وحج ابن إياس سنة ١٤٧٧ م دون أن يقوم على وظيفة معينة فى الركب المصرى ، كتملك التى أسفدت إلى أبى المحاسن فى حجته ، على أنه شهد ما لقيه الحاج ذاك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة ، بسبب ما وقع وقت ذاك بين السلطات المملوكية وبعض السكّين ، وجاء وصفه لما حدث برهانا على ما هنالك من دَخْنٍ دائم وكره متبادل ، بين ممثلى السلطان وذوات الحجاز وأمرائه ، طوال عهد المماليك .

وظل ابن إياس معظم حياته متمتعاً بإقطاع وافر ، يرجح

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٤ ، ٤٧ .

أنه من لدن السلطان الغورى ، فعاش عيشة راضية ، واشتغل بالكتابة والتأليف فى التاريخ ، ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات والمزوجات ، فى مناسبات شتى .

على أن منظومات ابن إياس توجب الالتفات : فنها ما هو مدح أورثاء لسلطان أو سلطنة أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة بالشفاء من مرض أو النجاة من محنة لعين من أعيان الدولة ، ومنها ما هو نقد أو تعقيب على بعض الأعمال الحكومية . فهل نستخلص من تلك القرائن ، كما فعل مارجوليوث (Margoliouth) ، أن ابن إياس تولى وظيفة مؤرخ الدولة (Historiographer) فى الحكومة المملوكية ، رغم أنه لم يذكر شيئاً من ذلك على التعمين فى كتبه ، ورغم أن وظيفة بهذا الاسم لم تعرف فى نظام المماليك ؟ أو نقول بأنه غداً من رجال الأدب المشغوفين بالعيش على هامش الحاشية السلطانية ، المتصلين ببعض رجالها كأبيه من قبل ، وإنه اعتمل نظم الشعر اجتهاداً للشهرة ، كلما وافته فرصة ؟ أو نرجح أنه أراد لنفسه مع السلطان محمد بن قايتباى مركزاً مشابهاً لمركز العيني مع السلطان برسباى ، أو لمركز أبى المحاسن مع السلطان المرجو محمد بن جقمق . على أنه مهما يكن من ترجيح أو ميل لهذا أو ذاك أو غيره مما يحتمل أن يكون وظيفة لابن إياس فى المحيط المملوكى ، فالواضح من أشعاره هذه ، ومناسباتها الخاصة والعامة ، أنه عاش فرداً متنبهاً عن كثر حوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وليس ذلك بصفته

مؤرخاً معنياً بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلاً حياً حساساً بما يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال ؛ وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد ضرائب المشاهرة التي ألغاها السلطان الغوري أواخر أيامه ، وصرثته التي قالها في وقعة الفتح العثماني لمصر .

وحدث لابن إياس في منتصف سنة ١٥٠٨ م ما عكّر عليه صفو حياته المطمئنة ، إذ تآزمت أحوال السلطان الغوري لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد إلى إخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم ، وقطع الرزق الأعباسية والأوقاف عن أهلها ، وأطلق للماليكه العنان ليهاجوا أصحاب تلك الإقطاعات في بيوتهم ، وبأخذوا منهم مناشيرها غصباً وضرراً ، إذا احتاج الأمر إلى الضرب والإخراق و ” البهدة ” . ونال ابن إياس من تلك الكارثة ما نال غيره من أبناء طبقة ، فذهب عنه إقطاعه الوافر إلى أربعة من المماليك بمكاتبات سلطانية ؛ غير أنه لم يبق بغير إقطاع مدة طويلة ، إذ وقف للسلطان الغوري أوائل سنة ١٥١٠ م بقصة يشكو فيها حاله ، وقدمها إليه وهو في طريقه للعب الكرة بميدان القلعة ، فاستجاب السلطان شكواه ، وردّ عليه إقطاعه ؛ ومدحه ابن إياس من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد .

غير أن ابن إياس لم يكن من المعجبين حقاً بالسلطان الغوري

وأعماله ، يشهد بذلك ما كتبه بصده بعد وفاته في كثير من المناسبات بكتابه الكبير في التاريخ ، واسمه بدائع الزهور في وقائع الدهور . وهذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثماني ، هو الذي جعل ابن إياس خليفاً بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين في مصر ، وأواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي . وبدأ ابن إياس تأليف كتابه هذا حوالي سنة ١٤٩٣ م ، وظل معنياً به حتى أواخر أيامه ، فجاء في أحد عشر جزءاً ، وكان في عمره أن يضيف إليه ليكمل اثني عشر جزءاً^(١) ، لولا موته سنة ١٥٢٤ م . ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخاً بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هي أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن إحدى هذه النسخ الناقصة نُشر الكتاب في القاهرة ، فجاء بعيداً عن الأصل ، خلواً من أهم جزء من أجزائه^(٢).

(١) تملك مكتبة فاتح باستامبول أربعة أجزاء غير متتابعة من هذا الكتاب وهي بخط المؤلف ، وفي حردما (Colophon) أنه انتهى من كتابة الجزء الرابع أوائل سنة ٩١٠ هـ (١٤٩٥ م) ، ومن الخامس أواخر تلك السنة الهجرية نفسها ، ومن الثامن أواسط سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) ، ومن الحادي عشر أواخر ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . ووعداً بن إياس في نفس الصفحة التي وردت بها الإشارة الأخيرة أنه سوف يقوم على كتابة الجزء الثاني عشر ، وهو ما لم يكتبه بسبب وفاته ، أو أنه كتبه ولم يعثر عليه أحد حتى الآن .

(٢) أدركت هذا المقتض جميع المستشرقين الألمان باستامبول ، فنشر =

ومن مؤلفات ابن إياس في التاريخ كذلك كتاب عقود الجمان في وقائع الأزمان ، وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر ، وليست له أية علاقة بكتابه الكبير أو بالنسخ المختزلة منه ، ثم كتاب نزهة الأمم في العجائب والحكم ، وهو تأليف صغير في تاريخ العالم ، وكتاب مرج الزهور في وقائع الدهور ، وهو مؤلف شعبي في قصص الأنبياء والرسل ، وربما كان لغير ابن إياس من المؤلفين ، رغم إشارته هولبعض محتوياته في الفصل السابع من الجزء الأول من بدائع الزهور . ولابن إياس كذلك كتاب نشق الأزهار في عجائب الأقطار ، وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون (Cosmography) ، وآثار مصر الفرعونية وملوكها . وذكر ابن إياس في مقدمته لهذا الكتاب أنه قصد بتأليفه أن يجمع فيه أغرب ماسمع وأعجب ما رأى ، ولا سيما ” عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة في البري “ ؛ وكان فراغه منه سنة ١٥١٨ م ، وكثيراً ما استمد منه علماء أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي .

على أن شهرة ابن إياس تستند كلية إلى كتابه الأول في التاريخ ، إذ صار به عمدة المؤرخين في أحوال دولة المماليك وأخبارها مدة الطور الأخير ، والمرجع الرئيس لحوادث فتح

= الأستاذ كاله Kahle ، والدكتور محمد مصطفى ، والرحوم سوبرنهم (Sobernheim) ، ثلاثة أجزاء جديدة من هذا الكتاب .

العثمانيين لمصر ، في أسلوب بديع ؛ ولذا ميزه مارجوليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين في مصر وغيرها بقوله : ” إن أسلوبه في الكتابة والتأليف ، ونعته في التفكير ، ينمّ كل منهما عن فردية واستقلال في الرأي قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين ^(١) “ .

والواقع أن ابن إياس كان على جانب من القدرة في النقد ، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على وتيرة أغلب السالفين من كتاب التاريخ ، بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف ، مع شيء من القسوة في الحكم ، والجرأة في التقدير ، والمغالاة نوعاً في التصوير . وربما شجعه على ذلك اتصاله ببعض أعيان البلاط السلطاني في عهود مختلفة ، كالأمر تراز الأتابك ، والأمير أقبردي الدوادار الكبير ، وكلاهما من رجال عصر قايتباي ، وكأبي بكر بن مزهر ، وولده البدرى محمد ، والقاضى محمود بن أجا ، وهم ممن شغل وظيفة كاتب السرّ في الدولة ؛ وهذا فضلاً عن صلته بأخيه الجمالى يوسف ، الذى أمدّه بما جرى بالقلعة من أخبار ، ولا سيما أخبار المدفعية التى عنى ابن إياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها على عهد الغورى .

أما عن أخلاق ابن إياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه ، ما دام الوجود من كتب المعاصرين والتأخرين لا ينبئ عنه بشيء ألبتة . على أن كتبه التى ألفها ،

وملاحظاته التي أودعها إياها عن نفسه وحوادث عصره ورجاله ،
تدلّ على الكثير من كنه شخصيته الكبيرة : فضخامة
مؤلفاته رهان على أنه ظلّ طول حياته مجدداً في الكتابة ، ودؤوبه
على تدوين الحوادث يوماً يوماً وشهراً شهراً في الأجزاء المعاصرة
من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق ،
وقسوته في الحكم على الناس تخبر بعلو مستواه الخلق ، وتناول
الحكم العثماني في مصر بالفقد والسخرية أحياناً لإهمال رجاله مصالح
المصريين — وذلك برغم ما أحاط السيادة العثمانية في القاهرة من
رهبة وخشية — يعطيه مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين .
ومن يدري ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثماني هو السبب
في خفاء ترجمته من كتب التراجم .

ولابن إياس معاصرون أربعة من المؤرخين ، وهم السيوطي ،
وابن خليل ، وابن طولون الدمشقي ، وابن زنبيل الرمال . ولكل
من أولاء فضل معلوم وسهم ظاهر فيما تجمّع للتاريخ المصري من
تراث محفوظ ؛ وإذا لم يبلغ أحدهم مبلغ ابن إياس ، أو يقربه في
المقدرة على التأليف الضخم في التاريخ ، فذلك راجع إلى أن
ابن إياس قصر نفسه على الكتابة في ذلك الفرع وما يتصل به
فقط (وهذا عدا نظم الشعر أحياناً) ، على حين أن معاصريه
أولئك اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات .
ومثل ذلك السيوطي صاحب الأخبار الطوال في أشتات العلوم

في عصره ، فإنه لم يترك ميداناً من ميادين المعرفة دون أن يُجرى فيه قلمه ، وهذا فضلاً عن تدخله في بعض المسائل العامة في عصره .
 وُلد جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي ، سنة ١٤٤٥ م بالقاهرة ، من أسرة ينتهي أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف اسمه همام الدين الخضيرى — نسبة إلى محلة الخضيرية (١) ببغداد . وجاء هذا الشيخ إلى أسيوط ، وعاش بها زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، وأقامت أسرته بها جيلاً بعد جيل ، وأخرجت رجالاً نابهين في المجتمع الأسيوطي في العصور الوسطى ؛ فمنهم نائب الحكم (القاضي) ، والمحاسب ، والتاجر ، والمتمول الخير ؛ ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصرى إبان قيامه على إخماد ثورة الأحب بالصعيد سنة ١٣٥٣ م ، في عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد ، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والخانقاه المعروفين باسمه بسوقية منعم فيما بين الصليبية والرميلة بالقاهرة الحالية (٢) . أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطي فهو آخر من

(١) يظهر أن هذه النسبة ليست بنجوة من الشك ، على الرغم من أن السيوطي نفسه (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥) هو الذى رجحها . ذلك أنه كان بأسيوط وبالقاهرة كذلك موضع اسمه الخضيرية زمن السيوطي ، وربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب إرجاع أصله إلى جهة بعيدة عظيمة الشأن ، لاسيما أنه جهد في أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك إنه أنصارى جعفرى الأرومة ، وإن جده من أم شريفة النسب .

(٢) انظر المقرئى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٣١٣ ، ٤٢٠ ؛ والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

أقام من تلك الأسرة بأسيموط ، إذ انقطع من دون رجالها جميعاً
لطلب العلم والتعليم ، ورحل من أجل ذلك في حدائنه إلى
القاهرة ، وأفاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمر شيخو ، فتولى
درس الفقه بالجامع الشيخوني ، وخطب بجامع ابن طولون ،
وآلف كثيراً في الفقه والنحو ، وتوفي في عشر الخميس ،
سنة ١٤٥١ م ، ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين (١).

وكانت والدته عبد الرحمن أم ولد تركية ، أنجبته وأبوه
بالغ في السن مبلغ النضج ، فجاء عبد الرحمن ناضجاً من يومه ،
على قول الإخصائيين في علم الأجناس . وكأنما توسم فيه والده
شيئاً من ذلك ، إذ قرّت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على
الخمسين ، فعنى بتعليمه أشد عناية ، وحفظه جزءاً كبيراً من

(١) ترجم السيوطي لأبيه في كتابه حسن المحاضرة (ج ١ ،
ص ١٥٥ ، ٢٠٨ — ٢٠٩) ، وفي بغية الوعاة في طبقات النحاة (ص
٢٠٦ — ٢٠٧) . والسيوطي نفسه غنى بترجمه المعاصرين والمتأخرين
والمحدثين ، إذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية في حسن المحاضرة (ج ١ ،
ص ١٥٥ — ١٦١) ، ترجمة في كل من السخاوي والشعراني والغزّي ،
والبوريني وابن العماد الحنبلي وابن إياس ، وعلي مبارك باشا ودائرة المعارف
الإسلامية وفيليب حتى . ويوجد في ابن طولون الدمشقي (الفلك المشحون ،
ص ٦) إشارة إلى ترجمة ذاتية أخرى للسيوطي في كتابه بغية الوعاة ، غير
أن المطبوع من هذا الكتاب لا يشمل ترجمة له ألبتة . وذكر البني
(السنا الباهر ، ص ٧٧) أن للسيوطي كذلك ترجمة ذاتية ثالثة في كتاب له
اسمه التحدث بنعمة الله تعالى ، وهذه عدا ما هنالك من تراجم أخرى
بقلم تلميذه الشاذلي والداودي .

القرآن ، واستصحبه أكثر من مرة إلى مجلس ابن حجر في الحديث . وغدا عبدالرحمن محظوظاً كذلك في أوصيائه ، إذ لحظوه برعايتهم ونظرهم ، ونجحوا في تقريره على وظيفة الجامع الشيخوني بعد وفاة أبيه ، ولذا نشأ يتيماً ناعماً بال .

واستطاع عبد الرحمن أن يختم القرآن ، وهو دون الثامنة من عمره ، فدل بذلك على ذاكرة قوية وحافظة واعية . ثم أخذ في طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع أو يتعاضمه فن ، إلا الحساب فإنه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته ، وإلا المنطق فإنه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه . أما ماعدا ذلك من العلوم ، كالتفسير والحديث والفقه ، والنحو والمأني والبيان والبديع (على طريقة العرب والبلغاء ، لاعلى طريقة المعجم وأهل الفلسفة) ، وأصول الفقه والجدل ، والتصريف والإنشاء والترسل ، والفرائض والقراءات والطب ، فالسيوطي نفسه قال إنه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة في السكال ، وإنه رزق التبحر في السبعة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم — فضلاً عما هو دونهم علماء وزمناً — ، وإنه اخترع علم أصول اللغة وورثه ، وإنه وصل إلى مرتبة ” المجتهد المطلق ” في الحديث والفقه والعربية باجتماع ” آلات الاجتهاد ” كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب في أية مسألة مصنفًا بأقوالها وأدلتها العقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرة على ذلك

كله تماماً في غير عناء . ولا غرو في ذلك مادام أن السيوطى نفسه قال مرة لشيخه السخاوى وهو يحاوره نظماً : ” علمى كبحر من الأمواج ملتنطم “ .

بلغ عبد الرحمن السيوطى ذلك المقام الزاخر من العلم — مع المباحاة العريضة بكيفه وكه لديه — بعد حياة دراسية طويلة بالقاهرة ، وأسفار كثيرة فى البلاد المصرية وغيرها . وتفصيل ذلك بتقريره أنه درس على ستائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد ، وأنه سافر من أجل ذلك إلى مراكز العلم بدمياط والإسكندرية ، والحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج وجاور سنة كاملة . وقد تجمعت لديه أثناء ذلك كله براءات وشهادات وإجازات كثيرة ، أولها إجازة بتدريس اللغة العربية سنة ١٤٦١ م ، وعمره وقتئذ سبعة عشر عاماً ، ومن المعروف أنه بدأ التأليف تلك السنة بكتاب فى شرح الاستعاذة والبسملة .

على أن السيوطى لم ينصرف إلى تدريس اللغة العربية على ما يظهر ، بل باشر تدريس الفقه بالجامع الشيخونى الذى لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ؛ وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه البلقينى سنة ١٤٦٥ م . ثم تصدى السيوطى للإفتاء وإملاء الحديث ، بجامع ابن طولون سنة ١٤٦٧ م ؛ وأضيف إليه تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشيخونية سنة ١٤٧٢ م ، بمساعدة الأمير إينال الأشقر ؛ كما تولى مشيخة التصوف بترية برقوق نائب الشام التى

تقع بباب القرافة الحالية ، بعناية بلديّه أبي الطيب السيوطي .
وبقي السيوطي مقولياً تلك الوظائف كلها حتى ناهز الأربعين من
عمره ، ثم انتقل عنها إلى مشيخة الخانقاه البيهرسية سنة ١٤٨٦ م ،
وهي أكبر خوانق القاهرة وأوسعها^(١) أوقافاً في عصره ،
وصاحب الفضل في تعيينه عليها الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز
العباسي . ومن ثمّ انقطع السيوطي عن التدريس والإفتاء والإملاء
والإسماع ، وأخذ في التجرد للعبادة كما قال الشعراني ، وأنه
انجمع وتمشّخ على قول السخاوي . وشرع السيوطي منذئذ
في تحرير مؤلفاته ، وربما ألهاه التكاثر عن الإتقان ، فلم يعم
في بعض الأحيان ، بل جرى قلمه بالتأليف السريع حتى أربت
كتبه على الخمسمائة ، سوى ما غسله ورجع عنه ، ولذا جاءت أكثر
مؤلفاته^(٢) جمعاً لا تأليفاً .

وهال المعاصرين والمتأخرين والمحدثين أن ينسب ذلك العدد
الجم من الكتب إلى مؤلف واحد ، وفسره السخاوي بأن
السيوطي اختلس كثيراً من تصانيف ابن تيمية وابن حجر
والسخاوي وغيره ، من مجموعة عُثر عليها كلها بمكتبة المدرسة

(١) المقرئ (المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ٢ ، ص ٤١٦) .

(٢) لم تقتصر كثرة المؤلفات على السيوطي وأشباهه من المؤلفين
المسلمين ، بل صدقت تلك الظاهرة كذلك على بعض المؤلفين الغربيين في
العصور الوسطى ، ومثال ذلك رامون لول الإسباني ، إذ بلغت مؤلفاته

خمسائة . انظر (Alison Peers : St. John of the Cross. p. 61)

المحمودية ، وأنه عدل فيها يسيراً ، وقدّم وأخّر ، ونسبها لنفسه بعد أن هول في مقدّماتها .

غير أنه مهما قيل في هذا الباب ، فإن تهمة الاختلاس لا يمكن أن تنصب على جميع مؤلفات السيوطي ، بل لدينا من حقيقة الحال العلمية في عصره ، ومما يستطاع استنتاجه من نفسيته وعقليته وأخلاقه وأحواله ، ومن بساطة المسائل التي أفرد لها كثيراً من كتبه ، ومن أحجام تلك الكتب التي أدمجها في تعداد الضخم ، ما يساعد على تعليل ذلك التكثر الخارق في التأليف تعليلاً معقولاً . ذلك أن عصر السيوطي — وهو الحقبة الأخيرة من عهد المماليك عصر المستقلة — كان عصر الجمع والتلخيص والتكميل والشرح والحواشي ، وليس به في الواقع من المؤلفات — فيما عدا الكتب التاريخية — ما يصح أن يوصف بغير ذلك من الصفات . ومثال ذلك من كتب السيوطي الكبرى كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلي ، والمعروف أن السيوطي أنهاء في أربعين يوماً ، وكتاب طبقات الحفاظ ، وهو تلخيص وتكملة للذهبي ، وكتاب لب اللباب في تحرير الأنساب ، وهو اختصار لعز الدين بن الأثير ، واستغرق السيوطي في إنجازها عشرة أيام فقط . ثم أن السيوطي اعتقد في نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق في الحديث والفقه والعربية ، وأنه لو شاء أن يكتب في كل مسألة مصنفاً تاماً لاستطاع كما تقدّم ،

وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة للهجرة ، وأنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام وخطبه في اليقظة والنماف خمسين مرة ، فتطلبت منه تلك الدعاوى أن يكتب كثيراً ليدعم أقواله . يضاف إلى ذلك أن السيوطى عاش غضوباً ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها في يوم أو ليلة . ليرد بها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه ^(١) . ومن الأمثلة الدالة على أثر ذلك كله في عدد مؤلفات السيوطى كتاب إرشاد المهتدين في نصرة المجتهدين ، وكتاب الرد على من أخذ إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ، وكتاب التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ، وكتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ^(٢) ، وكتاب تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك . ثم إنه دأب على التدخل في

(١) قال السيوطى ، نقلاً عن الشمرانى (ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٤) : ” وخالفنى أهل عصرى في خمسين مسألة ، فألفت في كل مسألة مؤلفاً بينت فيه وجه الحق “ ، وهذا عدا ما كتبه لتبرير موقفه من مسائل معينة كما سبى . انظر كذلك ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) أشار السيوطى إلى مسألتى اجتتهاده ومبعوثيته بإشارات خفيفة في كثير من مؤلفاته ، غير أنه خلع النقاب تماماً في هذا الكتاب ، إذ قال : ” فإن ثم من ينفخ أشداقه ويدعى مناظرى ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضنى ويستجيش على بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباءً منثوراً . (راجع مقدمة الدكتور فيليب حتى لكتاب نظم المقيان ، صفحة ش — ص) .

المسائل العامة في عصره ، ومثل ذلك قيامه في مسألة ابن الفارض سنة ١٤٧٠ م ، وكتابه في ذلك مقامة اسمها قمع المعارض في نصرة^(١) ابن الفارض ، وإفتاؤه من غير تفويض بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة ، لأن الإجماع منعقد على منع البناء في شطوط الأنهار الجارية ، وله في ذلك ” كتاب “ كذلك . ثم إن السيوطي أحب التسلّي بالكتابة في موضوعات واهية تافهة ، ومثل ذلك كتاب الإسفار عن قلم الأظفار ، وكتاب بلوغ المآرب في قص الشارب ، وكتاب الوديك في فضل الديك ، وكتاب مسألة ضرب زيداً قائماً ، وكثير من هذه لا يعدو كراسة أو ورقة أحياناً .

ومهما يكن فليس لجميع جولات السيوطي في علوم عصره ومسائله الخاصة والعامة متسع كافٍ^(٢) بهذه السطور ، إذ البحث محدود بعنوانه ، والتعريف فيه بالسيوطي قاصر على تقديره بين المؤرخين بمصر في حقبة معينة ، فلا يجب أن تطفئ كثرة القول في غير ذلك من أشقات نشاطه على ما هنالك من غرض أصلي ، وهذا بالإضافة إلى أن مؤلفاته التاريخية ليست سوى شيء قليل

(١) انظر ابن إلياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ١١٩ ؛
ومجموعة مؤلفات السيوطي الصغرى ، بدار الكتب المصرية ، تحت
رقم ٩٨ مجاميع .

(٢) راجع السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

بالقياس إلى كتبه في غير التاريخ من العلوم . ومن تلك المؤلفات التاريخية كتاب حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة ، في جزئين ، وهو تاريخ للبلاد المصرية والقاهرة عاصمتها ، مع بمض فصول إضافية في النظم المملوكية وأساليبها ، وطبقات العلماء والأصلاء والصوفية في مصر ؛ وقد كتبه السيوطي في عصر السلطان قايتباي ، واعتمد في تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفاً عددها في مقدمته . ومن مؤلفاته كذلك كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، وكتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباي ، وكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ، وهو كتاب شعبي في التاريخ العام ، وكتاب تاريخ أسيوط ، وكتاب كوكب الروضة ، وهو تاريخ لجزيرة الروضة جنوبي القاهرة ، ألفه السيوطي سنة ١٤٨٩ م ، ونقل فيه كثيراً مما كتب المقرئ في هذا الموضوع ، وكتاب تاريخ العمر ، وهو ذيل على أنباء العمر لابن حجر ، وكتاب المنتقى من تاريخ ابن عساكر ، وكتاب الشماريخ في علم التاريخ ، وهو رسالة قصيرة في أصل اتفاق المسلمين على جمل الهجرة النبوية مبدءاً للتاريخ الإسلامي ، وإجماعهم على اعتبار المحرم أول الشهور ، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية . وللسيوطي عدا ذلك كتب كثيرة في التراجم والطبقات ، ومنها كتاب نظم العقيان في أعيان الأعيان ، وكتاب بنية الوعاة في طبقات النحاة ، وكتاب المنتقط من الدرر الكامنة ، وهذا فضلاً عن مؤلفاته في سائر علوم عصره .

وقيل بحق إن السيوطى لم يكن مؤلفاً فى معظم هذه الكتب التاريخية وغيرها ، بل إنه جمع فأوعى فقط ، واختصر ونخلص فحسب ، وربما نسب لنفسه مؤلفات لغيره ، كما قرّر السخاوى . على أن ذلك ليس بالقليل - أو الغريب - فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، ولم يسلم من تلك التهمة كل من القرزى وأبى المحاسن ، وهما من أساطين المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى . ثم إنه ليس من النصفة فى شئ أن يقاس السيوطى وغيره بمقاييس اليوم ، بل إن فضل السيوطى فيما صنع على وجه العموم واضح - وإن جاء فضلاً مشوباً - إذ حفظ بقلك الطريقة كتباً مفقودة أصولها حتى الآن ، ولولا قلمه لما وصل منها شئ للمتأخرين . ثم إن السيوطى وضّح بطريقته هذه حال العلوم والعلماء فى عصره ، ونفّق كتباً ظلت بعيدة عن متناول الناس والعامة لندرتها أو ضخامتها ؛ وانتشرت تلك الكتب فى ثوبها المختصر إلى جميع البلاد الإسلامية ، من مراکش والتكرور إلى الهند واليمن ، وذاع معها صيت السيوطى ذيوماً يشهد به وجود الكثير منها بخطه ، فى مختلف المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية القديمة ، ولا سيما بالهند .

ومما أعان السيوطى على التفرغ لكتابة ما كتب من مؤلفات ضخمة ورسائل صغيرة ، أنه ظل طويلاً على مشيخة البيرونية متممًا بوظيفتها الوافرة ، منذ تولّاها أواخر عهد قايتباى ،

وهذا على الرغم من قيام بعض أعدائه من القضاة وغيرهم بالوقعة به عند ذلك السلطان الطيّب . غير أنه أغضب قايتباى آخر سنة من حكمه (١٤٩٥ م) ، بسبب طلوعه إلى حضرته في مسألة وعلى رأسه الطيلسان ، مخالفاً بذلك بعض التقاليد المرعية ؛ ومع أنه عتب على مخالفته ، فإنه أصر على صحة موقفه ، وكتب في ذلك رسالة اسمها الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان . وامتنع السيوطى من بعد ذلك عن الطلوع إلى السلطان ، بل رفض أن يذهب مع العلماء لتهنئته بالشفاء من مرض ألمّ به ، محتجاً بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنة ، وألّف في ذلك كتاباً سماه ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين^(١) .

ومع هذا كله بقي السيوطى على وظيفته بالببرسية حتى وفاة قايتباى . غير أنه أفسح لأعدائه بمواقفه هذه سبيلاً إلى تأجيج النار عليه ببلاط السلطان الجديد ، وهو محمد بن قايتباى ؛ وكأما أحسن السيوطى بما سوف يناله قريباً من عزل عن وظيفته الرغيدة ، فحسن للخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباسى سنة ١٤٩٦ م أن يولّيه قاضياً كبيراً على جميع القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المجاورة ، وأن يجعل بيده الولاية والعزل فيهم مطلقاً ، وهى وظيفة لم يحرزها قط في العالم الإسلامى سوى القاضى تاج الدين ابن الأعرز في الدولة الأيوبية ، بعد أن صار لتلك الدولة سيادة

(١) الشمرانى : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ١٩ — ٢٠ .

فعلمية على جميع بلاد الشرق الأدنى . على أن السيوطى لم يفكّر
فى تلك الوظيفة لتكون له مخرجاً من البيروقراطية فحسب ، بل يظهر
أنه أراد أن يستخدها فى النيل من بعض أعدائه ، وربما رأى
فيها تحقيقاً لما قال به من وجوب قيام الخلافة القطبية الباطنية فوق
الخلافة العباسية الظاهرة^(١) . ثم قامت القيامة بين القضاة والناس ،
حين شاع أن الخليفة عهد إلى السيوطى بتلك الوظيفة ، وما زال
القضاة بالخليفة حتى أشهدوا عليه بالرجوع عنها ، واعترف للملأ
بأن السيوطى هو الذى اقترحها عليه^(٢) .

ثم حدث فى سنة ١٤٩٧ م ، أن قطع السيوطى جَـمِـلَـة
الصوفية بالخانقاه البيروسية ، بحجة أنهم خانوا طريقهم ونسوا
صوفيتهم ، فثار نأثرهم عليه ، وحملوه بأثوابه ورموه بفسقية
الخانقاه ، وكادوا أن يقتلوه . واقتصر أعداؤه تلك الفرصة ،
ومنهم الأمير طومان باى الدوادار ، فحكم السيوطى وثبت لدى
قضائه أن طمعه أفسده ، وأن تفكيره فى الاستيلاء على دراهم
الصوفية الفقراء جعله غير صالح للبقاء فى مشيخته ، ولذا عُـزِلَ .
واعتكف السيوطى من ثم فى بيت له بجزيرة الروضة^(٣) ، حتى

(١) انظر السيوطى : كتاب التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل
مائة . (دار الكتب المصرية ، رقم ٩٨ مجاميع) .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

فيليب حتى : مقدمة نظم العقيان ، صفحة ر .

إنه لم يفتح شبائيكه المطة على النيل مدّة ، وكتب في ذلك رسالة اسمها تأخير الظلامه إلى يوم القيامة . على أن محنته لم تنته بملك الحادثة ، إذ تسلطن طومان باى الدودار سنة ١٥٠٠ م ، وخاف السيموطى بطشه ، فاخفى بجهة غير معلومة ، وظلّ مخفياً شهوراً حتى وفاة هذا السلطان وتولية قانصوه الغورى بعده أواخر تلك السنة . وعندئذ رجع السيموطى إلى بيته بالروضة^(١) ، غير أنه فضل البقاء فى عزلته ، ولم يقبل أن يعود إلى الحياة العامة ، إذ عرض عليه الغورى وظيفة المشيخة بمدرسته ومدفنه بالقبة الزرقاء فرفض^(٢) ، وما زال على ازوائه حتى مات سنة ١٥٠٥ م . وللسيموطى قبر بأسيموط يزار ، ولكنه مزور ، إذ المعروف أنه دفن بحوش الأمير قوصوف ، خارج باب القرافة بالقاهرة .

أما عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فهو سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ، وأبوه الأمير المحدث خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به ضمن معاصرى المقرئى من المؤرخين البارزين ، وأمه الأميرة أصيل أخت امرأة السلطان برسباى . ومولد عبد الباسط سنة ١٤٤٠ م ، بملطية بأطراف أسيا الصغرى ، حيث كان أبوه

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) الشعرانى : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٢١ .

متولياً نيابتها من قبل السلطان جقمق ، وقضى طفولته وشبابه متنقلاً بين البلاد التي اتفق لأبيه الإقامة فيها موظفاً مرضياً عنه ، أو طرخاناً منسياً أو مغضوباً عليه ، مثل حلب والخليل والقدس ودمشق وبغداد والقاهرة ومكة وطرابلس ، فتلقى علوم عصره على شيوخ مختلفين ، ومنهم أبوه الذي أقرأه الكثير من الكتب في شتى العلوم ، كما علمه اللغة التركية أيضاً .

وشغف عبد الباسط كأبيه بالتحصيل الواسع ، فذهب مثله إلى بلاد كثيرة من المغرب لم تعينها المراجع ، وتلقى هناك دروساً في الفحو والكلام والطب حتى أتقنها . ثم استقر أخيراً بالقاهرة ، بعد وفاة أبيه خليل سنة ١٤٦٨ م ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصفوف ، وتعرف إلى السيوطي متولى مشيختها ، وإلى يونس الرومي المنطيق نزيلها ، وسمع كذلك على غيرها من علماء القاهرة ، واعتبره السخاوي من تلاميذه في التاريخ .

واشتغل عبد الباسط بعد ذلك بالتأليف في مختلف العلوم والفنون ، ونظم ونثر ؛ غير أن المراجع لا تنبئ بشيء يدل على غير ذلك من عمل رسمي وظَّف عليه في الدولة المملوكية . ومن مؤلفاته المعروفة في التاريخ كتاب نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، وكتاب نيل الأمل ، وهو تكملة لتاريخ الذهبي ، وكتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، وهو ذيل لتاريخ أبي المحاسن المشهور ، وكتاب تاريخ الأنبياء الأكار

وبيان أولى العزم منهم . وله عدا ذلك كتاب الوصلة في مسألة القبلة ، وكتاب الحكمة والسر في كون الضوء ، وكتاب القول المأنوس ، وكتاب شرح القانونشة في الطب ، وكتاب عمدة الطالبين ورغبة الراغبين في الفقه . وهذه المؤلفات كلها لا تزال في ظلمات المخطوطات ، بمختلف مكاتب الشرق والغرب ، ما عدا الكتاب الأخير منها فإنه مطبوع طبعاً سقيماً .

ولعبد الباسط فوق هذا نظم مبعثر في كتب معاصريه ، ولا سيما ابن إياس الذي نعته بلفظ ” شيخنا ” في تاريخه أكثر من مرة ، ولا بد أن مؤلفات عبد الباسط نفسها تحوى منه كثيراً . ومن ذلك النظم أبيات في مناسبات شتى : مثل وفاء النيل بعد توقف طويل سنة ١٤٩٣ م ، وصرثية في وفاة السيوطى سنة ١٥٠٥ م ، وفي هذين المثلين وغيرها دليل على أن عبد الباسط عاش كابن إياس — وأبى المحاسن كذلك — بين رجال الأدب المتقربين في هامش البلاط السلطاني ومجتمعات الخاصة في دولة المماليك . والواقع أن عبد الباسط مشابه لابن إياس في كثير من الوجوه ، فكلاهما ابن أمير مملوكي ومن أولاد الناس على قول مصطلح العصر ، وكلاهما مؤرخ وشاعر . على أن عبد الباسط امتاز عن صنفه المؤرخ بأنه ألف في غير التاريخ من علوم زمنه ، كما امتاز على سائر أصفانته ومعاصريه من أهل القلم بأن ما لدينا من نماذج نظمته خلوه من التهانى والمديح ، بل يدل على أنه عاش متمزلاً مترفعاً ،

وجاء ما كتبه فيه كلٌّ من السخاوى وابن إياس مصداقاً لذلك تماماً ، إذ قال أولهما بأنه : ” إنسان ساكن أصيل منجمع عن الناس “^(١) ، ووصفه ثانيهما وصفاً قلمياً دقيقاً تناول هيئته وبزته وأخلاقه ، حين قال إنه ” كان صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يربي ذؤابة شعر في رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جداً وكان ضئيلاً بنفسه ، وعنده يديس طباع مع شمم زايد ، وكان معظمها عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفاً باللغة التركية ، وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف “^(٢) .

وتوفى عبد الباسط سنة ١٥١٤ م ، بعد مرضه بالسل مرضاً ألزمه داره أكثر من سنة ؛ ويلاحظ أن وفاته حدثت والمائة العاشرة للهجرة كرت من أعوامها عشريناً ، أى أنه كان من رجال القرن العاشر بقدر ما هو من أهل القرن التاسع ، ومثله وأكثر منه في هذه الحضرة حسن بن الطولونى ، وغيره من مؤرخى تلك السنين من تاريخ المهاليك .

وُلد حسن بن حسين الطولونى سنة ١٤٣٢ م من أسرة يرجع أصلها إلى زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، واشتغل كثير من أبناء تلك الأسرة بالهندسة والمعمار ، فكان منهم غالباً ” معلم

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن إياس . بدائع الزهور — طبعة استانبول — ج ٤

المعلمين^(١) ، وهو كبير المهندسين في مصطلح الدولتين الأيوبية والملوكية بمصر ، وعليه المعول في العماير السلطانية . واستقام الحظ المادى تماما لتلك الأسرة أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، حين تزوج السلطان برقوق من أخت معلم المعلمين أحمد ابن الطولونى ، ثم من ابنته بعد طلاق عمتها . وأحمد هذا جد حسن بن الطولونى ، فلما جعله السلطان برقوق من أمراء المماليك برتبة أمير عشرة ، تزيّا بزيّ الأتراك ، وصار بذلك إنساناً ناجحاً ، وظلّ على إمرته ووظيفته حتى وفاته سنة ١٣٩٨ م ، وهى السنة التى مات فيها برقوق .

نشأ حسن بن الطولونى على مهنة آباءه ، ودرج فى عزم وجاههم^(٢) ، مع ميل إلى الفقه والتاريخ والأدب والغناء والفروسية ، وهو ممن عدّهم السخاوى من تلاميذه فى التاريخ ، ويظهر أنه اشتغل بوظيفة معمارية صغيرة فى أول أمره . ثم وقعت الفتنة التى أدت إلى اعتلاء السلطان إيفال عرش الدولة المملوكية سنة ١٤٥٣ م ، وعمل فيها حسن بن الطولونى بأن أشرف

(١) وردت هذه الوظيفة باسم معلم المعمارية فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٢٧) ، وباسم معلم السلطان كذلك فى نفس المرجع (ج ٧ ، ص ٧٠٤) .

(٢) ليس فى المراجع التى اعتمد عليها كاتب هذه السطور ما يدل على شيء ألبتة بصدد حسين أبى حسن بن الطولونى صاحب الترجمة هنا ، وربما كان كذلك من رجال المعمار .

على حصار قلعة الجبل حتى سلمت ، فجازاه إينال بأن عيَّنه على
وظيفتي معلم المعلمين وإمارة المحمل . وشغل المعلم حسن الوظيفة الأولى
من هاتين الوظيفتين سبعة عشر عاما ، تخللتها عهود السلاطين
إينال وابنه أحمد وخشقدم ويلباى وتمرغا وقايتباى حتى سنة
١٤٦٩ م ، فعزل عنها سنة ذلك لسبب لم تذكره المراجع . ثم أعاده
السلطان قايتباى إلى تلك الوظيفة بسفارة الأمير يشبك بن مهدي
الدوادار ، فقام على عمائر السلطان خير قيام ، ومنها جامع الروضة
المعروف بالمقسي على شاطئ النيل ، وهو الجامع الذى تم بفاؤه سنة
١٤٩٠ م ، وأفتى بسببه السيوطى نكايه فى قايتباى بأن الإجماع
منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية .

وظل ابن الطولونى متمتعا برضى السلطان قايتباى ، وحظى
عنده حتى أصبح وسيلة الناس لديه ، وسكن الروضة حيث الجامع
السلطانى ، وأقام به الوقفات الحافلة ليلة الرابع عشر من كل شهر ،
وأحضر لذلك قراء القاهرة ومؤذنيها وعاظها ، ليشبع بهم حبه فى
أنغام القراءة والأذان والوعظ . وحج ابن الطولونى سنة ١٤٩٢ م
موسمياً ، ورافقه السخاوى فى ركب ذاك العام ، فرأى من خير
معلم المعلمين وإحسانه وحسن هيئته ما لم يجد له نظيراً بين حاج
تلك السنة . ثم توفى السلطان قايتباى سنة ١٤٩٥ م ، فظل ابن
الطولونى على وظيفته ، بل ولَّاه السلطان محمد بن قايتباى نيابة

القلعة كذلك ، فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحسين القلعة
تحسيناً عظيماً أثناء فتنة الأمير قانصوه ختمسائة .

ولابن الطولوني في التاريخ كتاب الزهرة السنية في ذكر
الخلفاء والملوك المصرية ، وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الإسلام ،
وينتهي بحوادث السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك بمصر ،
والراجح أن له كتاباً ثانياً في التاريخ على صورة المذكرات أو
اليوميات ، غير أنه لا يوجد ما يدل عليه حتى العصر الحاضر
سوى قول ابن إياس في ترجمة ابن الطولوني بأنه ” أنشأ تاريخاً
لضبط الوقائع “^(١) ، وأكبر الظن أنه مدفون في مجموعة من
المجموعات الخطية التي تملأ مكتبات العالم ؛ ولابن الطولوني عدا
ذلك شرح مقدمة أبي الليث والأجرومية .

وعاش ابن الطولوني حتى سنة ١٥١٧ م ، أى أنه أدرك
الفتح العثماني لمصر والشام ؛ غير أنه عمى قبل ذلك بمدة طويلة ،
وعزل عن وظيفته المعمارية ، واستقر فيها بعده ابنه شهاب الدين
أحمد : ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين (المهندسين)
والصناع الذين حملهم السلطان سليم الأول العثماني من القاهرة إلى
إسطنبول ، ليقوموا له هناك بمثل ما رآه بعاصمة المماليك من
المباني والعمائر ، ثم رجع مع الراجعين من المصريين حينئذ إلى القاهرة
بإذن السلطان العثماني .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة بولاق — ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولابن إياس ثبتُ يستغرق أربع صفحات كاملة من تاريخه الكبير ، فيه أسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين ذهبوا إلى أستانبول ثم رجعوا عنها إلى القاهرة بعد قليل ، وفيه أسماء غيرهم من الشخصيات الكبرى والصغرى ، وأولهم الخليفة المتوكل العباسي . وليت ابن إياس ذكر من ضمن أولئك وهؤلاء أحمد ابن زنبيل المحلى الزمال ، رابع معاصريه من المؤرخين في مصر ، أو أورد بشأنه خبراً واحداً ، فإن المراجع المعروفة لا تكاد تنبئ بشيء عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثماني في وقت ما ، وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التي أنهت دولة المماليك بمصر والشام ، وأنه حضر جنازة طومان باي آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثماني . ولابن زنبيل كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة ، وهو سجل وافٍ لحوادث الفتح العثماني ، من يوم خروج السلطان قانصوه الغوري من القاهرة لملاقاة العثمانيين بشمال الشام ، إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول مظفراً إلى إسطنبول . ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كُتبت نسخة — أو نسخ — شعبية ما برحت تسليمة المقاهي بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادي ؛ وترجمه السهيلى إلى التركية في القرن

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة إسطنبول — ج ٥ ،

السابع عشر، ضمن كتاب له اسمه الدرة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة؛ واعتمد عليه مارسيل (Marcel)، أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر، في كتابه الذي ألفه في تاريخ مصر الإسلامية، ولا يزال مرجعاً من الدرجة الأولى حتى الآن. وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة والخاصة، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعاً رديئاً، وربما عني به المعنيون بالتاريخ المصري قريباً، لتكون منه نسخة منشورة نشرأ نهائياً مقارناً، يطمئن إليها المؤرخون اطمئناناً علمياً.

ولابن زنبيل عدا ذلك من المؤلفات كتاب في التاريخ باللغة التركية، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين في زمنه، وكتاب تحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من العجائب والغرائب، وهو في الجغرافية، وكتاب المقالات في حل المشكلات، وهو في علم الخط والرمل والتنجيم، وكلها مخطوط مهملة إهمالاً تاماً. والمعروف كذلك من أخبار ابن زنبيل أنه بقي حياً يرزق من وظيفة بديوان الجيش العثماني سنة ١٥٤٤ م، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبي قير الحالية قرب الإسكندرية، وأنه توفي بعد سنة ١٥٥٢ م.

ولإذا كان ما لدينا من أخبار ابن زنبيل الرمال لا يكفي لكتابة ترجمة متصلة الحقائق شافية، فإن المراجع تضيق بأخبار محمد بن طولون الدمشقي آخر معاصري ابن إياس من المؤرخين،

فضلاً عن ترجمة ذاتية^(١) كتبها هذا المؤرخ لنفسه تقليداً
للسابقين من المعاصرين والمتقدمين كالسيوطي ، وهي في أربع
وخمسين صفحة من القطع الصغير ، لا يخرج القارى منها بشيء
كثير ، خلاصته أن ابن طولون وُلِدَ سنة ١٤٧٥ م بصالحية
دمشق ، وأن أمه أزدان الرومية توفيت وهو في سن الطفولة
الأولى . وتعلم ابن طولون على شيوخ دمشق ، ومنهم عمه القاضي
جمال الدين يوسف الحنفي مفتي دار العدل بها ، والمؤرخ الدمشقي
محيي الدين النعمي ، والمحدث جمال الدين ابن المبرد ؛ ثم
رحل ابن طولون في طلب العلم إلى مكة سنة ١٥١٤ م هـ ، فسمع
بها على الحافظ عز الدين بن فهد ، وأجازه السيوطي إجازة بالكتابة
من القاهرة .

وقرر ابن طولون في ترجمته الذاتية أن عدة شيوخه بلغت
خمسائة ، وأن العلوم التي اشتغل بتحصيلها تزيد على اثنين وسبعين
علماً ، ومنها الحديث والكلام والأصول ، والنحو والصرف
والمنطق ، والطب والهيئة والهندسة ، والمعاني والبديع والحساب ،
والفرائض والعروض والفلك ، والميقات واللغة والتاريخ ، والفقه
والتصوف والتفسير . وأجازه مشايخه في بعض هذه العلوم

(١) اسم هذه الترجمة الذاتية الفلك المشحون في أحوال محمد بن
طولون ، وهي مطبوعة بدار مكتبة القدس والبدير بدمشق ، سنة

الإجازة والإجازتين والثلاث ؛ ولذا جاء ابن الطولونى كالسيوطى تماماً من حيث مشايخه وعلومه وبراءاته العلمية وسماعاته ، بل أصاب المرحوم تيمور باشا حينما وصفه بأنه سيوطى الشام .

والواقع أن الشبه بين الرجلين يتعدى إلى مؤلفاتهما وأنواعها وقيمتها كذلك ، بل تزيد مؤلفات ابن طولون الدمشقى كثيراً عن مؤلفات صاحبه المصرى ، وهى واردة فى ترجمته الذاتية — وفى غيرها من المراجع — فى عدة صفحات بترتيب أبجدى لكثيرتها . ومن هذه فى التاريخ كتاب غير معروف العنوان على التحقيق ، ولا يوجد منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة طبعت ^(١) حديثاً ، ولعله كتاب عجب الدهر فى تذييل من ملك مصر ، أو كتاب نزهة الناظر فى معرفة الأواخر ، أو كتاب مفاهمة الخلان فى حوادث الزمان . وكيفما كان الأمر ، فهذه القطعة من ذلك الكتاب المجهول هى التى أهملت ابن طولون لأن يكون فى عداد المؤرخين الذين يرجع إليهم فى كتابة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، لانفرادها بحقائق تاريخية هامة فى الفتح العثمانى وأسبابه وحوادثه ، واشتمالها على مارآه مؤلفها من حوادث ذلك الفتح بدمشق ، مما لم يره ابن إياس وهو بالقاهرة .

(١) عثر المستشرق رتشارد هارتمان (Richard Hartmann) على هذه القطعة بمكتبة جامعة توبنجن (Tübingen) ، ونشرها سنة ١٩٢٦ تحت اسم (Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tūlūn).

ولابن طولون فى التاريخ كذلك كتاب العقود المؤلّوية فى الدولة الطولونية ، وكتاب حورالعيون فى تاريخ ابن طولون ، وهو تلخيص مع زيادات لسيرة أحمد بن طولون للبلوى^(١) المؤرخ المتوفى حول منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . وعثر ابن طولون على تلك السيرة فى دكان ورّاق ، فاشتراها وأهداها لخزانة المدرسة العمريّة بصاحبة دمشق ، وكتب عليها بخطه أنه ابتاعها بتسعة قروش ، وكل ذلك تقدير منه لمؤسس الدولة الطولونية الذى اعتبره جدّه الأعلى .

ولابن طولون كذلك فى التاريخ كتاب الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام ، وكتاب إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى ، كما أن له فى التراجم كتاب سلك الجمان فيما وقع لى من تراجم ملوك بنى عثمان ، وكتاب النطق المنبى فى ترجمة الشيخ المحيوى ابن العربى . وكتاب الاختيارات المرضية فى أخبار التقي ابن تيمية ، وكتاب التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان ، وهو ذيل على تراجم البرهان البقاعى المعروف باسم عنوان الزمان ، وغير ذلك كثير فى مختلف العلوم والمواضيع والصناعات .

(١) نشر الأستاذ محمد كرد على بك هذه السيرة الطولونية حديثاً من نسخة وحيدة وجدها بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وسدّ بنشره وتحقيقه هذا الكتاب ثغرة واسعة من ثغرات التاريخ المصرى أوائل المصهور الوسطى .

واشتغل ابن طولون فوق ذلك بوظائف عديدة من تدريس
وإلقاء وإمامة وخطابة ، ومشارفة وفقهاء ومشايخه ، بمختلف
معاهد دمشق وجوامعها وزواياها وخوانقها ، فكانت أوقاته
معمورة تماماً ؛ وظلّ على كثير من تلك الوظائف برغم ما جرى
على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح العثماني ، وتوفي سنة ١٥٤٥ م ،
ولم يعقب أحداً .

الفصل الرابع

خاتمة ونقد مقارن

المقصود في السطور التالية تعقيب نقدي على ما جاء من أخبار المؤرخين والكتاب الذين تقدمت تراجهم في الفصول السابقة ، على أن يتبعه تحليل لمؤلفاتهم تحليلاً مقارناً ، من حيث إنها نتاج شامل لمرحلة من التاريخ المصرى مدتها قرن ونيف من السنين . ومما يوجب الالتفات أولاً في حياة أولئك الرجال أنهم كانوا في الغالب ممن شغلوا — أو طلبوا — وظائف كبيرة في الدولة المملوكية ، وأنهم جمعوا إلى ذلك بين فن الكتابة في التاريخ والدراسات والتأليف المتنوعة . فالمقرئ مثلًا تولى التوقيع بديوان الإنشاء ، ثم وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى في وقت معين ، وذلك فضلاً عن تعيينه سنوات أخرى مدرسا للحديث (أى أستاذاً ذا كرسى في المصطلح الجامعى الآن) ، بمدارس القاهرة ودمشق ، وقيامه ناظراً على أوقاف واسعة بماصمة الشام ؛ ومع هذا فشهرته مبنية على ما كتبه في التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، والخطط أيضاً . وكذلك كان ابن حجر قاضياً للقضاة الشافعية بالقاهرة ، كما كان العيني قاضياً للقضاة الحنفية بها ، مع

تولى ثانيهما الحسبة ونظر الأحباس جميعاً في وقت واحد ؛ ونبغ كل منهما في وظائف تدريس الحديث بالقاهرة ، وخلف في الحديث وعلومه مؤلفات ضخمة ، وهذا عدا مؤلفاتهما التاريخية الكبرى . ويقال مثل ذلك في ابن عرب شاه ، إذ اشتغل بديوان الإنشاء بمعظم الممالك الإسلامية في الشرق الأدنى ، بل صار كاتب السر لدى السلطان محمد الأول العثماني ، وغدت يمهده مراسلات الدولة العثمانية وشؤونها مع جيرانها من ترك وعرب وفرس ومغول على الأقل ، لمعرفة لغات تلك البلاد معرفة تامة . وتقلد خليل بن شاهين — وهو عدل السلطان برسباي — وظائف عظيمة في الدولة المملوكية بمصر والشام وأطراف آسيا الصغرى ، فتمعين ناظراً ثم حاجباً بالإسكندرية ، وتولى دار الضرب فالوزارة بالقاهرة ، ثم تقلب في عدة نيايات بمدن الشام ومطية بأطراف الدولة المملوكية ، وذلك بالإضافة إلى مؤلفاته في الفقه والتفسير والتعبير والتاريخ والإنشاء . أما الخالدي ، مؤلف كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الإنشاء ، فإنه قضى عدة سنوات موظفاً مسؤولاً بديوان الإنشاء بالقاهرة ، كما يدل عليه كتابه . ومع أن أبا المحاسن لم يباشِر وظيفة دائمة يوماً من أيام حياته الطويلة ، فالمعروف أنه كان من فرقة أولاد الناس ، التي جرت العادة في الدولة المملوكية أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة في النظام الحربي المملوكي رعاية لسلفه ، وأن تسند إليه وظيفة مدنية زمن السلم ،

على أن يقوم بواجب الأمير وقت الحرب ؛ ثم تولى أبو المحاسن
وظيفة باش المحمل المصرى سنة ١٤٤٥ م ، ومؤلفاته الكبيرة
فى التاريخ والتراجم معروفة . وصار ابن الصيرفى خطيباً لجامع
الظاهر برقوق ، ونائباً للحكم (قاضياً) عند قاضى القضاة الحنفية ،
كما اشتغل بالتجارة والتأليف فى التاريخ والسيرة النبوية . أما
السخاوى ، فكأنما قدر له أن يظلّ طول حياته يسمى إلى وظيفة
من وظائف تدريس الحديث بالقاهرة ، ويبوء من سميّه المتّصل
ببقائه طالباً زمناً حتى آخر أيامه ، فعانى التأليف فى الحديث والتاريخ
والتراجم ، وكتب لنفسه ترجمة ذاتية فى أكثر من ثلاثين صفحة
من كتابه الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وربما كان
عدم توفيقه لوظيفة سبباً من أسباب المرارة الطاغية على كثير من
تراجمه فى معجمه الكبير . وأما ابن إياس فليس من المعروف ما عدا
عليه من وظيفة سوى أنه ظلّ كذلك فى فرقة أولاد الناس ،
وبيده إقطاع له عبرة وافرة ، كأبى المحاسن من قبل وعبد الباسط
وابن الطولونى من بعد ، وما عدا أن نظّمه يدلّ على أنه عاش حول
البلاط السلطانى ، ولعله تعيّن فيه على وظيفة مؤقتة لم يشأ أن
يذكرها فى كتابه لضآلتها فى نظره . وأمام معاصره السيوطى فإنه عاش
جمّاعاً للوظائف ، من تداريس ومشىخات حبّاً فى الصيت والمال ؛
ويظهر أن ابن طولون الدمشقى شابه السيوطى فى هذه الناحية
كذلك ، فضلاً عن مشابهته له فى الاعتداد بالنفس وادعاء التبجر

في جميع العلوم وكثرة التأليف . وأما ابن الطولوني ، فإنه تولى وظيفة " معلم المعلمين " في البلاط المملوكي مدة طويلة ، كما كان ابن زنبيل من موظفي ديوان الجيش العثماني ، وذلك بالإضافة إلى اشتغاله بالرمل والنجوم والأوقاف ، وله في ذلك كتاب تقدمت الإشارة إليه ، وهذا عدا ما ألف في الجغرافية والتاريخ .

وظاهرة ثانية مشتركة بين أولئك المؤرخين والكتاب في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي ممارستهم جميعاً نظم الشعر في مناسبات شتى ؛ ويظهر أن هذا الفن كان من مستلزمات المتقورين في ذلك العصر . على أن السيوطي بزّ المعاصرين والمتقدمين جميعاً بممارسة الأدب النثري كذلك ، إذ كتب سلسلة من المقامات في نثر مسجوع . والواقع أنه لم يشذ عن هذه القاعدة — وهي ممارسة النظم — أحد من أولئك المؤرخين ، غير أن المعروف من أشعار بعضهم لا يكاد يعدو أصابع اليد مرة أو مرتين عدداً ، وربما أبطنت كتبهم المخطوطة كثيراً مما لهم في هذا الباب الذي وجبت العناية به ، لإبراز تاريخ مفهوم للأدب العربي المصري في العصور الوسطى ، وللإستعانة به في معرفة ما غمض من أخلاق الكتاب وعلاقاتهم الشخصية بعضهم ببعض .

ذلك أنه يبدو من إشارات معظم أولئك المؤرخين إلى ما بقيهم أو معاصريهم أنهم كانوا شديدي الخصومة ، والتحاسد والمداخنة — وتلك هي الطاهرة الثالثة الشائعة بينهم — ، يستشفها القارئ

لكتبهم في غير عناء ؛ وسببها في الغالب ما تولد بينهم من منافسة
وتعصب لمشايخهم ، سواء أكانوا مؤرخين أم محدثين أو موظفين
في الدولة المملوكية . من ذلك أن المقرئ لم يغفر للعيني أنه خلفه
في وظيفة الحسبة ، وهي الوظيفة الوحيدة التي يظهر أن
المقرئ استراح لها من دون الوظائف التي تولّاها ، ولذا لم يألُ
فرصة دون أن يتناول العيني بلاذع الإشارة في كتبه . ولم يتحرج
العيني — بإزاء ذلك على الأقل — أن يصف المقرئ في عبارة ماثلة
ساخرة ، بأنه كان رجلاً " مشغلاً بكتابة التواريخ وبضرب الرمل ،
تولى الحسبة بالقاهرة . . . ثم عزل ^(١) مسطره " . ولم يخلُ من
ذلك التحاسد والشعور بالمنافسة أمثال ابن حجر المعروف بالاتزان
والوقار ، فإنه كره العيني كرهاً تاماً ، ولم يستطع أن يسكت
عن سرقاته فيما ألف في الحديث والتاريخ ، فرماه بما سمح به
قلمه من التجريح . وكذلك لم يفت أبو الحسن أن يتعقب أخطاء
أستاذه المقرئ كلما سنحت له الفرصة ، وذلك مع العلم بأن
كثيراً مما جاء في كتب أبي الحسن منقول بحذايره من مؤلفات
المقرئ . أما السخاوي فلم يمجبه أحد من سابقيه أو معاصريه ،
ما خلا أستاذه ابن حجر ، ولم يشأ أن يترك مناسبة — أو غير
مناسبة — إلا اغتنمها للحط من كل من المقرئ والعيني
وغيرهما . ومن ذلك قوله في أبي الحسن : " وبالجملة فقد كان

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، نقلاً عن العيني .

[أبو المحاسن] حسن العشرة ، تام العقل — إلا في دعواه فهو حق (١) ، ورميه ابن الصيرفي بأنه " كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ، ولا عن (٢) راو " ، ووصفه السيوطي بأنه " ترتب قبل أن يتحصرم لم أزل أعرفه بالهوس ومزيد الترفع حتى على أمه (٣) " .

ولم يسلم السخاوى طبعاً من معاصريه ، إذ نعته السيوطي بأنه " المؤرخ الجارح أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره ، وأغرق فيه عمله ، وسلق فيه أعراض الناس ، وملاؤه بمساوى الخلق . . . وزعم أنه قام في ذلك بواجب ، وهو الجرح والتعديل (٤) " ؛ وأيده في ذلك الحكم ابن إياس في عبارة مترنة معتدلة في التعريف بالسخاوى . والواقع أن ابن إياس كان أقل مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادى في مصر حسداً وغيره من أبناء صناعته ، وهو كذلك أعد لهم لفظاً عند الحكم على كثير من الناس ، وربما كان ابن إياس ذلك كله لأنه لم يراحم أحداً من معاصريه من المؤرخين في وظائفهم وأطباعهم ، وأنه عاش حفاظاً للجمائل . مثال ذلك قصده في النيل من السيوطي بخير أو شر ، لأنه على الرغم من عدم احترامه له ، لم ينس له حق تعليمه إياه ، فلم يتعرض له بأكثر من النقد الخفيف .

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٤) السيوطي : نظم العقيان — طبعة حق — ، ص ١٥٢ .

وتمَّ ظاهرة رابعة ، يراها القارىُّ شائعة بين مؤلفات أولئك المؤرخين كذلك ، إنهم يقولون فى مقدّمات كتبهم إنما يؤلفون لأنفسهم خاصة ، أو نزولا على رغبة صديق من الأصدقاء ، لا يريدون من ذلك جزاء أو نفعا أو صيتا أو حبا فى استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير . والغالب أن هذا التصنّع كان أيضا من لزوميات العلماء فى ذلك العصر وغيره من العصور ، ولا سيما إذا كان المؤلف ممن لم يسعدهم الحظ فى البلاط السلطانى ، أو عند أمير من الأمراء . والدليل على ذلك أن الذين نالوا منهم شيئا من التشجيع والرضا عند بعض أولى الأمر فى الدولة لم يكتبوا أمثال تلك العبارة المصطنعة فى افتتاحيات مؤلفاتهم ، بل ذكروا اسم السلطان أو الأمير صاحب الفضل عليهم . والأمثلة على النوعين كثيرة : فالمقرئى مثلا يفتح كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ببيتين من الشعر ملخصهما أنه جمع ذلك الكتاب لنفسه^(١) ، وأبو المحاسن يقول فى أول كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ما نصه : ” ولم أقل كمقالة الغير إني مستدعى إلى ذلك من أمير أو سلطان ، ولا مطّالب به من الأصدقاء والإخوان ، بل ألفتها لنفسى ، وأينعته بباسقات غرسى ، ليكون لى فى الوحدة

(١) المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — طبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر — ج ١ ، ص ٣ .

جليسا ، وبين الجلساء مسامراً وأنيساً^(١) . غير أن أبا المحاسن ناقض نفسه في موضع آخر من كتابه هذا حين قال إنه ألفه من أجل صديقه السلطان المرجو محمد بن جقمق ، ليجعل منه ما جعل العيني للسلطان برسبای من كتاب عقد الجمان بأخبار الزمان ، مع العلم بأن ابن جقمق لم يطلب إليه هذا الطلب . أما السخاوى ، فيذكر صراحة بأنه ألف كتاب القبر المسبوك في ذيل السلوك إجابة لطلب الأمير الكبير يشبك بن مهدي الدوادار ، وفي ذلك يقول : ” ثم أخذت في ضبط ما تيسر لي ، وذلك حين أمرني من إجابته عند العطاء كالواجب ، وإشارته بمجرد الإيماء للوقاية كالحاجب ، وجنابه يُعَبِّط من حلّ بجانبه ، وبابه محطّ رحال الساعي في مآربه ، فالعلماء بمجلسه حافون ، والفهماء في محل أنسه عاكفون^(٢) . . . “ ، وأمثال هذه العبارات كثير في كتب غير السخاوى من المؤرخين .

وهناك ظاهرة خامسة بين أولئك المؤرخين ، وهي الأخيرة والأكثر أهمية مما سبق في هذا المقام من الظواهر المشتركة بينهم ، لملاقحتها بالتاريخ ومقارفته في مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، وتلك هي أن الغالبية العظمى من كتب مؤرخي القرن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

— طبعة دار الكتب المصرية — ، ج ١ ، ص ٢ .

(٢) السخاوى : القبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ٤ .

الخامس عشر الميلادى فى مصر ليست سوى ذبول وتكملات
لكتب سبقتها زمنياً . على أن المؤرخين فى ذلك القرن ليسوا
فى الواقع سوى مقلدين لسلفهم فى التأليف التاريخى بالشرق
الإسلامى كله ، وأكبر الظن أن المؤرخين فى العربية على
الإطلاق^(١) أرادوا بتلك الطريقة أن يستمدوا لأنفسهم من شهرة
السابقين بربط مؤلفاتهم إلى كتب سلم الناس بأهميتها قبلاً ، أو
أن يفرضوا على الناس أنهم الوارثون لها فى الشهرة والزعامة من
إجلال واحترام ، أو أن يدعوا أنهم استطاعوا تهذيب أعماط السالفين
فى الكتابة والترتيب . فالمقرزى (وهو الوحيد الذى لا ينطبق
عليه شئ من هذا التعليل كله) ذيل على نفسه فى تأليفه كتاب
السلوك ، إذ كتبه ليكمل به سلسلة مؤلفاته الخالدة فى تاريخ
مصر الإسلامية فى العصور الوسطى منذ الفتح العربى إلى زمنه^(٢) .
أما أبو المحاسن فإنه كتب حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور

(١) يوجد كثير من الأدلة على إطلاق هذه الظاهرة على جميع
المؤرخين السابقين فى العربية قبل القرن الخامس عشر الميلادى ، ومنها أن
تاريخ أبى الفدا ذيل على كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أبوب لابن
واصل ، وأن تاريخ البرزالي ذيل على كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
لأبى شامة ، وأن كتاب الإعلام بتاريخ أهل الإسلام لابن قاضى شعبة ذيل
على كتاب العبر فى خبر من عبر للذهبي ، وغير ذلك كثير فيما يبدو .

(٢) المقرزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — طبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر — ، ج ١ ، ص ٩ .

استمراراً لكتاب السلوك ، وإحياء لسنة صاحبه وأستاذه مع التحسين فيها ، ليكون له من بعده زعامة المؤرخين بحق في القرن الخامس عشر الميلادي ^(١) . ولهذا السبب نفسه كتب السخاوي كتاب القبر المسبوك في ذيل السلوك ، وهو تكملة ثانية لكتاب المقرئ كما يتضح من العنوان ، كما أنه ألف كتاب وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام تكملة لكتاب الذهبي المؤرخ ، وكتاب الذيل المتناهي تكملة لكتاب معروف لابن حجر في قضاة مصر ، وكتاب الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب ابن الجزري . ومن أمثلة ذلك أيضاً كتاب المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لأبي المحاسن ، فهو ذيل على المؤلف المعروف لخليل بن أبيك الصفدي ، وكتاب إنباء الغمر في أبناء العمر لابن حجر ، وهو في الواقع ذيل لكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، وكتاب تاريخ العمر للسيوطي ، وهو تكملة للكتاب المتقدم لابن حجر .

غير أنه توجد عدا هذه الظواهر المشتركة بين أولئك المؤرخين ظاهرة واحدة غير مشتركة بينهم ، أو — بعبارة أخرى — ظاهرة غير متساوية الانطباق على كل منهم ، وتلك هي اتجاه بعضهم ، كالمقرئ والسيوطي ، إلى تأليف الكتب الصغيرة في موضوعات

(١) أبو المحاسن : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور

— طبعة كاليفورنيا — ، ج ١ ، صفحة ب .

معمية ، فضلا عن جانب انشغالهم بالكتب الكبيرة والحواليات ،
 واتجاه بعضهم الآخر ، كآبى المحاسن والسخاوى ، إلى اختصار
 المؤلفات المنسوبة لأسلافهم أو لأنفسهم . على أن إنتاج البعض
 الأول فى ذلك الصنف من التأليف هو القمين بالانتباه هنا ،
 فمؤلفات المقرئى الصغيرة مثلا تتمصف بصفات خارقة ، إذ بينما
 تموج كتبه الكبيرة بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء ،
 وتؤود بحوادث العزل والولاية ، وتنغش بالتراجم والوفيات
 والحروب والتجاريـد ، حتى تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو ترى
 إلا بمنظار ، إذا بهذه الكتب الصغيرة تلقى كثيراً من الضوء على
 شىء من هوية المؤلف ، وتوضّح الطريق لفهم الحال الفكرية فى
 عصره . ذلك أن المقرئى يعرض فى أمثال هذه الكتب لمسائل
 قلّ أن يتعرض لها فى حولياته ، ويتحلل من قيود تسجيل
 الأخبار ، ويجرؤ على الإدلاء بآرائه الخاصة ، بل يحاول أحيانا أن
 يعلل الحوادث تعليلا عقليا ، ويناقش بعض العميـوب نقاشا
 حرا^(١) . أما مؤلفات السيوطى الصغيرة فقد تقدمت الإشارة إلى
 طابعها الصحفى القائم على الدعاية لنفس لوامة للغير فى كثير من
 الأناة والتعديل الزائف وحب الصيت ، على أن غثاثة تلك

(١) انظر المقرئى : إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة
 والشيال — صفحة هـ ، وكذلك المقرئى : نحل عبر النحل — نشر
 الشيال ، صفحة د — هـ .

المؤلفات لا تستطيع إلا أن تنمَّ عن شخصية السيوطى ، وهى فى الواقع تلقى كثيراً من الضوء على شىء من هويته ودخيلته^(١) .

أما التعريف بمنهج الكتابة والتأليف عند مؤرخى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وتقدير مؤلفاتهم تقديراً مقارناً من حيث أنها منابع ومراجع أصلية للتاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، فمن الضرورى قبل الكلام فى هذا أو ذاك أن نذكر أولاً أن لفظ ”تاريخ“ فى ذلك العصر ، وما سبقه أو لحقه من العصور كذلك إلى نهاية العصور الوسطى — وسواء فى ذلك مصر وبلاد الشرق والغرب جميعاً — وسع غير التاريخ من العلوم والفنون والمقاصد ، كالحوليات والمدونات اليومية ، والوفيات والتراجم ومعاجم الكتب . ويرجع هذا التجوُّز الواسع فى مدلول لفظ ”تاريخ“ ومشموله فى اللغة العربية — واللغات الأوربية كذلك فى تلك الأزمنة — إلى عوامل لا محل هنا لمناقشتها أو استقصائها^(٢) ، إذ المراد شرح طريقة التأليف والترتيب عند مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى وحده فى مصر شرحاً استقرائياً . ذلك أن كلاً منهم كان يفتتح كتابه ، بعد البسملة والحمدلة والصلوات الطيبات ،

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٨ — ٦٣ .

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع ما كتبه الأستاذ عبد الحميد العبادى بك فى الفصل الثالث من كتاب علم التاريخ ، ص ٥١ — ٦٩ . (مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ م) .

بذكر بدء الخليقة ، ويُعقبه بقصص الأنبياء والمرسلين ، ثم يأخذ في شرح فضائل مصر وما امتازت به من الصفات على سائر البلدان ، ويستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية تأييداً لذلك ، ويلتقل من بعد هذا إلى تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي ، فيكون مختصراً أولاً ، ثم أقل اختصاراً ، وهكذا إلى أن يصير الكتاب سجلاً يومياً لما يقع بمصر وولاياتها وجاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى في عصر المؤلف . وقد يتخلل هذا السجل شيء عن أسعار المحاصيل وأحوالها ، أو فيض النيل ومناسيبه ، أو هبوب ريح سوداء ترفع الأبقار في الهواء ، أو تفصيلات جدل أدبي ، أو أدوار محنة فقهية ، أو تعديل في نظم الحكم والجيش ، أو وصف لمسجد عمره سلطان أو أمير ، أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة وجواب السلطان عليها ؛ وذلك فضلاً عن الوفيات والتراجم التي تطول أو تقصر بحسب مزاج الكاتب ومقياسه ، وعلى قدر القيمة السياسية أو الاجتماعية المترجم له .

يتضح من هذا أن مؤرخي ذلك العصر لم يفرقوا بين التاريخ والقصص والأدب والوفيات والتراجم ونظم الحكم ، وأنهم اتبعوا طريقة الاستطراد في التأليف ، فلم يميزوا بين التاريخ البحت وبين الاقتصاد والاجتماع والتاريخ الدستوري ، مثلاً . واتبع المقرئ تلك الطريقة الجامعة بمقدار في كتاب السلوك لمعرفة

دول الملوك ، غير أنه رتبته على نظام مخالف لما وجدته شائعاً بين مؤلفات مَنْ سبقه من المؤرخين في مصر ، كالنويري وابن الفرات . وتفصيل ذلك النظام أن المقرئى دوّن حوادث كل عام في فصل مستقل ، تحت عنوان باسم ذاك العام بخط كبير وممداد غير ممداد المتن ، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها في شيء من الاختصار العامد ، ثم انتقل إلى العام التالى فجعله عنواناً جديداً ، وسجل حوادثه دون أن يؤلف من كتابته قصة متصلة ، ما عدا أنه افتتح السنة أحياناً بذكر الوظائف الكبرى ومَنْ عليها ، وهذا في العادة إذا جاء بدء السنة موافقاً لقيام سلطان جديد ، لما في ذلك طبعاً من تغيير وتبديل بين موظفي البلاط السلطاني . واعتاد المقرئى كذلك أن يكتب اسم السلطان الجديد بخط كبير وممداد مخالف ، غير أنه لم يجعل من ذلك وقفة يلخص فيها أو يفلسف ، بل اكتفى بعبارات افتتاحية في أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل إلى ذكر الحوادث والأخبار حسب ترتيبها الزمنى على قدر الإمكان .

وسار كلٌّ من العيني وابن حجر على هذا النظام في كتبهما التاريخية ، ما عدا أن شغف ابن حجر بالتراجم حمّله على أن يفيض فيها بأكثر مما دوّن في حوادث سنة بأكملها . ولابن حجر فضل في أنه كتب الوفيات على ترتيب أبجدي ، وحذا حذوه في ذلك تلميذاه السخاوى وابن الصيرفى . وابن حجر كذلك أول من ابتدع فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بتمامه ،

وهو أيضاً صاحب فكرة التسمية لتلك الكتب على عنوان القرون ، وإليه يرجع قصب السبق في العناية بتراجم الفاضلات المحدثات من النساء ، وكتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة دليل واضح على ذلك . واقتفى السخاوى أثره في هذا كله ، وزاد عليه بأن جعل للنساء وحدهن جزءاً مستقلاً من كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ؛ وتألفت من بعد ذلك الكتب المعروفة في وفيات القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر الهجرى .

أما أبو المحاسن فإنه أخذ على أستاذه المقرئى أنه ملأ كتابه بالحوادث والماجريات ، وقصّر في التراجم والوفيات ، ولذا ألف هو كتابه حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، معارضاً لذلك الترتيب ، فأطنب في الحوادث وأوسع في التراجم ، لتكثر الفائدة من الطرفين ، على قوله ؛ وهذا الكتاب هو الذى جعله أبو المحاسن ذيلًا على كتاب السلوك للمقرئى . بل إن أبا المحاسن انتهج في تاريخه الكبير ، وهو كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، منهجاً مخالفاً لطريقة المقرئى وترتيبه ، إذ جعل كل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلاً قائماً بذاته ، وذكر السنين وحوادثها تبعاً من غير أن يجعل لها عناوين مستقلة ، ما عدا أنه أشار إلى إهلالها على أنه حادثة من الحوادث ، حتى إذا توفى السلطان أتى على أخباره مرة أخرى في ترجمة متصلة ، وشرح أخلاقه وعوامل نجاحه أو فشله ،

ثم أعقب ذلك كله بترتيب سنوات العهد نفسه ترتيباً عددياً ،
وذكر وفیات كل منها فی فصل واحد ، وربما أفاض فی هذه
أو تلك من الوفيات إفاضة ملحوظة لما لصاحبها من مقام ممتاز ،
أو ذكر فی أثنائها من الحوادث ما لم يستطع ذكره أو أنسیه فی
الجزء الخاص بعهود السلاطین .

وأما ابن إیاس فاتبع طریقاً نصفه بین ترتیبی المقریزی
وأبی المحاسن ، إذ قسم كتابه بدائع الزهور فی وقائع الدهور
إلى عهود مستقلة ، كما فعل أبو المحاسن ، وذكر السنین بعناوین
واضحة وبخط كبير ومداد مخالف ، كما فعل المقریزی ؛ ولكنه لم
يجعل للوفیات ترتیباً زمنياً منفصلاً مثل ترتیب أبی المحاسن ، ولم
يكتبها عند أواخر السنین من حولياته مثل نظام المقریزی ، بل
أوردها فی كثير من الإيجاز عند وقوعها حیثما اتفق من شهور السنة ،
وهو فی ذلك متبع للطريقة التي سار عليها مؤلف مجهول الاسم ، له
كتاب مخطوط ناقص وبغير عنوان بالمتحف البريطاني بلندن ،
وموضوعه تاريخ دمشق .

وللبرهان على كل ما تقدم من ملاحظات يجب الرجوع إلى
كتب أولئك المؤرخین نفسها ، أو إلى مقدماتها على الأقل :
فالمقریزی مثلاً بین فی تصدير كتاب السلوك أنه ألفه لیسكون
تاريخ السلاطین فی مصر بعد الفاطمیین " من الملوك الأكراد
والأیوبیة ، والسلاطین المملیک التركیة والجرکسیة ، فی كتاب

يحصّر أخبارهم الشائعة ، ويستقصي أعلامهم الدائمة ، ويحوى أكثر ما في أيامهم من الحوادث والماجريات ، غير معتنٍ فيه بالتراجم والوفيات ، لأنى أفردت لها تأليفاً بديع المثال ، بعيد المال ، فألفت هذا الديوان ، وسلكت فيه التوسط بين الإكثار الممل والاختصار المخل ^(١) . وكذلك كتب أبو المحاسن في خطبة كتاب النجوم الزاهرة ، حيث قال إنه رتبته ليكون شاملاً لعمود من ولى مصر منذ الفتح العربى من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين ، " واحداً بعد واحد ، لا أقدم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً في كل ترجمة ما أحدث صاحبها في أيام ولايته من الأمور ، وما جدّده من القواعد والوظائف والولايات في مدى الدهور ، ولا أقتصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المباني الزاهرة ، كالبيادق والجوامع ومقاييس النيل وعمارة القاهرة ، أولاً فأولاً ، أذكره في يوم مبناه وفي زمن سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لسانه ، على أنى أذكر من توفى من الأعيان في دولة كل خليفة وسلطان باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك ، مع ذكر بعض الحوادث في مدة ولاية المذكور في أيما قطر من الأقطار ^(٢) " . أما ابن إياس ، فليس

(١) الفريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة

دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ٣ .

بالمطبوع من تاريخه خطبة مشابهة يمكن الاقتباس منها اقتباساً يدل على طريقته في التأليف ؛ على أن القارىء لكتابه يجد ذلك واضحاً شاملاً في جميع أجزائه ، وهو لا يخرج عما تقدمت الإشارة إليه إجمالاً في موضعه .

والحاصل أن طريقة تقي المقرئى وأبى المحاسن ، وكذلك الطريقة التى سار عليها ابن إياس ، ليست فى شىء من التاريخ بمعناه الحديث : فطريقة المقرئى ناقصة لقطع تتابع الحوادث فجأة عند نهاية السنين ، وطريقة أبى المحاسن مؤدية لشىء من الخلل والاضطراب ، بسبب مراوحته بين الإفاضة فيما هو بصدد من حادثة أو مسألة ، وبين تأجيل ذلك إلى صفحات الوفيات التى ذيل بها عهود السلاطين ، مما نتج عنه نقص أحياناً وتكرار أحياناً أخرى . ويقال مثل هذا وذلك بصدد طريقة ابن إياس ، لأنها فى الواقع مزيج من الطريقتين السابقتين .

ثم إنه يلاحظ أن المؤرخين على وجه التعميم قنعوا فى كتبهم هذه بذكر الحقائق مجردة عن أسبابها ، ودرّجوا الحوادث شهراً فشهراً — أو يوماً فيوماً أحياناً — دون أن يحاولوا ربط حادثة ما بشىء سابق ، أو يجعلوا من كتابتهم قصة متصلة ، أو يعرضوا لشىء من المقدمة والنتيجة لهذا أو ذاك مما كتبوه . على أنه من الحق أن يسجل لهم أنهم انتقدوا وفلسفوا وأنهم بأحكام واضحة فى بعض الحوادث الجارية ، ولا سيما فى الأجزاء المعاصرة من

مؤلفاتهم ، وذلك على الرغم من أن أحكامهم هذه جاءت دائماً من باب التعقيب على الحوادث للمعظة والاعتبار ، دون أن يكون فيها شيء من التعميل أو التحليل أو الاستقصاء .

وأما طريقتهم في الأجزاء غير المعاصرة من مؤلفاتهم ، فهي أن ينقلوا من كتب السابقين نقلاً حرفياً ، مع ذكر اسم المرجع أو مؤلفه أحياناً قليلة فقط ؛ فمشوا بذلك على المبدأ القديم المتواتر بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ولم يتعمروا المنقولهم بمعقول أو نقد أو تخرج أو تعديل ، ما عدا أنهم غيروا بمض الألفاظ بين العبارة والأخرى . على أن تلك الطريقة النقليّة عادت بفائدة لا يمكن المبالغة في مداها ، إذ حفظت بفضلها كتب مفقودة أصولها الكاملة حتى الآن ، ولولاها ما وصل من تلك الكتب شيء المتأخرين ، ولولاها كذلك ما عرفنا كثيراً مما هو معروف — وإن جاء ناقصاً — من أساليب المؤرخين في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية في العصور الوسطى .

وأما ما يتعلق بالقيمة القياسية لكل من الأجزاء المعاصرة في تلك المؤلفات جميعاً ، فتقرير ذلك مرتبط بما استقام للؤلف من مقدرة على استقاء الأخبار من منابعها كرجال الدولة والدواوين ، وعلى تنقيتها وغربلتها من الشوائب والزوائد . وعلى هذه القاعدة يتبين أن المقرئ حرص في الجزء المعاصر من كتاب السلوك على أن يكون رجلاً نقادة جريئاً ، يعرف الغث من السمين

مما يترامى إليه من أخبار وحقائق ؛ ولذا يجد القارى بصفحاته معلومات قل أن يجدها فى مثل مساحتها من كتاب آخر ، وذلك فضلا عن انفرادها بحقائق ضافية فى أحوال النقود ، وقوانين المعاملات التجارية ، والاحتكارات السلطانية ، والأثمان الجارية لأنواع الأطعمة . غير أن الجزء الأخير من هذا الكتاب يوافق زمنياً عهد السلطان برسبای ، ولم يكن المقرزى من المقرئين إلى ذلك السلطان ؛ ولذا يلحس القارى فى ثنايا هذا الجزء من الكتاب شيئاً من المرارة والكراهية ، إلى جانب الجرأة والنقد ؛ وذلك بعكس ما يقابله فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، إذ جاء أسلوبه أهدأ وأعدل ألفاظاً ، لأن أبا المحاسن ظل من الحائمين حول بلاط برسبای وحاشيته .

غير أن المقارنة الدقيقة بين ما جاء فى كل من السلوك للمقرزى والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن من أخبار متفقة الوقوع تدلّ فى وضوح على أن أبا المحاسن نقل كثيراً من كتاب أستاذه نقلاً حرفياً ، دون أن يُعنى بالإشارة إلى مراجعته . ومن الجلى أن أبا المحاسن لم يجد ثمت سبباً يدفعه إلى الاعتراف بذلك النقل ، مادام أنه عاصر الحوادث بعينها ، وربما شهدا بعينه كذلك ، وهذا تفسير من غير تبرير مقبول . لكن الذى يستحيل تبريره البتة أن أبا المحاسن كان كلما وجد نفسه مخالفاً لأستاذه ، نقل روايته بنصّها وفصّها مهما طال ، وأنبعها بنقيد وتصحيح من

عنده ، فى لهجة خالية من اللياقة أحياناً . على أنه إذا أغفلنا تلك الفاحية من نقد أبى المحاسن لأستاذه ، فإن ما أورده بصدد كثير من الحوادث من تصويب وتصحيح جاء أقرب إلى الحقيقة والواقع مما كتب المقرئى ، إذ المعروف أن المقرئى هو السابق فى الكتابة ، وأنه اعتزل الحياة العامة منذ ترك الوظائف والدواوين ، وأن تلك الفترة الأخيرة من حياته هى التى اشتغل فيها بالتأليف ، على حين بقى أبو المحاسن طول عمره متقلّباً فى بلاط السلاطين وبيوت الأمراء ، يتلقى من أقاربه وأصحابه وأصدقائه من موظفى الدولة ما ساعده على توضيح بعض الحقائق التاريخية التى غمضت على غيره . ومع هذا كله هيات أن يقارن ذلك التلميذ النابغ بأستاذه الكبير فى ضوء مؤلفاتهما ، من حيث القيمة والكثرة واختلاف المقاصد والتنسيق .

أما العيى ، فىكنى لبيان القيمة النسبية للجزء المعاصر من كتابه عقد الجمان فى أخبار الزمان ، وهو الجزء الذى يستغرق عصر السلطان برسباى وما يليه حتى سنة ١٤٥١ م ، أن العيى نفسه كان يجلس إلى حضرة ذلك السلطان ليقراً عليه فى أمسياته بالتركية من كتابه الذى كتبه بالعربية . على أن تلك البينة تكون كافية للحكم على قيمته التاريخية ، لو كان من المعروف ما اتعه العيى من هذا الكتاب الكبير فى ذلك العهد ، أو أن العيى ذكر الأجزاء التى قرأها منه على السلطان قصد تملّقه

أو ابتغاء وعظه بأخبار السابقين . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن العيني تملق جميع السلاطين الذين أفاءوا عليه من ظلالهم ، وأنه سبق له في أوائل أيامه أن ألف كتاباً مشهوراً في فضائل السلطان المؤيد شيخ ، كما نظم قصائد كثيرة في مدح كل من السلطانين ططر ورسباى نفسه .

واستمد ابن حجر في تأليف كتابه إنباء الغمر بأنباء العمر من كتاب العيني كثيراً ، وقارن الكتابين ببعضهما ببعض مقارنة شملت التفاصيل ؛ على أنه لم يتعقب عثراته بالعدالة والضبط ، كما فعل أبو المحاسن بمؤلفات المقرئى ، بل اعترف بالنقل منه اعترافاً صريحاً في قوله " كتبت منه ما ليس عندي ، مما أظن أنه اطلع عليه من الأمور التي كنا نغيب عنها ويحضرها (١) " ، أى أن الكتابين يكمل بعضهما بعضاً في كثير من المواضع . غير أنه يلاحظ أن كتاب ابن حجر لا يبيء شيئاً بالنسبة لكتاب العيني في الحجم ، بل إن قيمته تنحصر في أنه سجل واف بالحوادث التي وقعت في أيام ابن حجر فقط ، على حين أن كتاب العيني تاريخ شامل لأخبار مصر الإسلامية إلى عصر مؤلفه . ومع هذا فكتاب ابن حجر ممتاز بتعليقات وملاحظات تفرّد بها صاحبها عن سائر المؤلفين

(١) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر — مخطوطة المتحف

البريطاني بلندن ، ج — ، ١ ، صفحة ١ ب .

المعاصرين والسابقين ، ممن استقى منهم بالإضافة إلى المعنى ،
كابن الفرات وابن دقماق والمقرئى .

أما ابن إياس ، فالقارىء لكتابه بدائع الزهور فى وقائع
الدهور يفتقد الإفاضة والتفاصيل التى عرفها من مؤلفات
المقرئى وأبى المحاسن والمعنى وابن حجر ، فلا يجد لها أثراً . غير
أن أسلوب ابن إياس — مع اختصاره وعزوفه عن الإطالة
والإطناب حتى فى الأجزاء المعاصرة من كتابه — مطبوع بطابع
الذكاء والدقة ؛ وليس فى استطاعة ناقد — مهما علا سمته — أن
يفكر أن ابن إياس كان على جانب عظيم من القدرة ، وذلك
برغم صرامة أحكامه ، وبرغم أخطائه أحياناً فى ضبط الوفيات .
يتبقى بعد ذلك مسألة مكملّة لهذا النقد المقارن ، وهى مدى
إلمام المؤرخين الذين تقدّمت أسماؤهم بأحوال البلاد المجاورة لمصر ،
من حيث جغرافيتها وأهميتها الاقتصادية لدولة المماليك . غير أنه
ليس من العدل أن نقدر المعلومات الجغرافية عند أولئك العلماء بما
ورد عرضاً فى كتبهم التاريخية بصدد البلاد المجاورة ، لأن مبلغ ما فى
تلك الكتب لا يعدو ذكر اسم هذا أو ذاك من الأقطار والممالك ،
بمناسبة وصول قاصد (سفير) من عند ملك من ملوكها إلى
السلطان بالقاهرة . بل قليلاً ما يجد القارىء غير ذلك ، مما
لا يزيد عن أسماء الملوك ، أو مسافات الأسفار والطرق والمسالك التى
عبرها القاصد الفلانى كيما يصل إلى مصر . غير أنه على الرغم من هذه

الفدرة الجغرافية المنتظرة في كتب التاريخ ، فالواقع أنه يمكن القول بأن أولئك المؤرخين عرفوا مواضع البلاد الإسلامية القريبة معرفة جيدة بفضل أسفارهم إليها ، وأن معلوماتهم بصدد الممالك الإسلامية البعيدة لم تكن قليلة بالقياس إلى معلومات المصور الوسطى في أوصاف البلدان وجغرافيتها ، وأن ما عرفوه عن ممالك أوربا وأصقاعها مع ضآلته ونقصه لم يكن مهوشاً مملوءاً بالخرافات ، بل تضمن حقائق بارزة ثابتة في تاريخها وجغرافيتها وعلاقاتها السياسية بجيرانها . ومن تلك الحقائق مثلاً أن دول أوربا المسيحية ، كالبندقية وجنوة وقطونية وقبرص ورودرس ، أضمرت كلها العداء للدولة المماليك ، على حين اكتفى بعضها بإرسال سفنه إلى موانئ السلطان للتجارة الحلال ، وعلى حين شجّع بعضها الآخر مختلف الإغارات الساحلية والقرصنة التي أوجبت الجهاد والاستئصال . غير أن المعلومات الجغرافية البحتة لم توجد طبعا في كتب المؤرخين ، وحسب القارى أن يولى وجهه شطر مؤلفات معاصريهم وأصدقائهم ممن كتبوا في الجغرافية عرضاً أو قصداً ، ليعلم مبلغ الإمام علماء ذلك العصر بأحوال البلاد المحيطة بدولة المماليك . ومن هذه المؤلفات كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ، وكتاب المقصد الرفيع للنشا الهادي لصناعة الإنشا للخالدي ، وكتاب زبدة كشف الممالك لخليل

ابن شاهين ، وكلها ممتلى' بأوصاف البلاد الإسلامية والمسيحية البعيدة والقريبة .

وتمت مسألة أخرى مكتملة لهذه الخاتمة ، وهى سقم الأسلوب العربى الذى كتب به مؤرخو ذلك القرن مؤلفاتهم التاريخية وغيرها ؛ إذ الواقع أنها تموج بألفاظ وتعابير وجل لا تمت للعربية الفصحى بصلة ، وتزخر بعاميات غريبة واصطلاحات غامضة لا تذكرها القواميس والمعاجم . وأكثر ما يكثر ذلك فى كتابات أبى المحاسن وابن إياس ، بل إن أسلوب المقرئى نفسه لم يخل من تلك الهنات . ويرجع ذلك أولاً إلى ذبوع اللسان التركى بين طبقات الخاصة ، وإلى دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة (بما فى ذلك اليونانى واللاتينى وفروعه) فى مصطلح الجيش والبحرية والدواوين ، مما أدى إلى كثير من الخلط بين ما هو عربى صحيح وما هو أجنبى غير جائز الاستعمال . وهذا الخلط فى ظاهره وواقعه عيب يؤسف له ، وكثيراً ما شكوا قراء هذه الكتب التاريخية من عرج أسلوبها وغموضه ؛ غير أن ذلك فى باطنه حسنة لا تفكر ، إذ أنه نموذج لحال اللغة والكتابة فى عصر سلاطين المماليك بمصر والشام ، وهو لذلك مادة ذات أهمية للمعنيين بتاريخ الأدب العربى فى مصر ، والمستغلين بدراسة لهجات القاهرة فى مختلف المصور .

مؤلفات المؤرخين الواردة في هذا الكتاب^(١)

١ - أحمد بن علي المقرئ : (ص ٦)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - عقد جواهر
الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط - انماظ الحنفا بأخبار
الخلق - السلوك لمعرفة دول الملوك - المقفى الكبير -
العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة - النزاع والتخاصم
فيما بين بنى أمية وبنى هاشم - إغاة الأمة بكشف الغمة .

٢ - أحمد بن حجر : (ص ١٧)

فتح البارى في شرح البخارى - المجمع المؤسس والمعجم
المفهرس - إنباء الغمر في أنباء العمر - الدرر الكامنة
في أعيان المائة الثامنة .

٣ - العيني : (ص ٢٠)

عقد الجمان في تاريخ أهل هذا الزمان - عمدة القارى في
شرح البخارى .

(١) تشمل هذه القائمة أسماء المؤلفات التى اقتضتها رُسُيُبر المؤرخين
في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى ، غير أنها لا تشمل جميع المؤلفات
المنسوبة إلى أولئك المؤرخين .

٤ — ابن عمر بشاه : (ص ٢٢)

التأليف الطاهر في شيم الملك الطاهر — عجائب المقدور
في أخبار تيمور .

• — خليل بن شاهين : (ص ٢٣)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

٦ — بهاء الدين الخالدي : (ص ٢٤)

المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا .

٧ — أبو المحاسن بن تغرى بردى : (ص ٢٦)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — المنهل الصافي
والمستوفى بعد الوافي — الدليل الشافي على المنهل الصافي —
مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة — حوادث
الدهور في مدى الأيام والشهور — نزهة الرائي في التاريخ —
البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر — نزهة الألباب في
اختلاف الأسماء والألقاب — حلية الصفات في الأسماء
والصناعات — البشارة في تكملة الإشارة — الانتصار للسان
المقار — الرياضيات والموسيقى — السكر الفاضح والمطر الفائح .

٨ — نور الدين بن الصيرفي : (ص ٣٦)

زهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان — أبناء الحصر في
أبناء العصر — سيرة الأشرف قايتباي — الجوهريّة في
السيرة النبوية .

٩ — أبو الخير السخاوي : (ص ٣٩)

التبر المسموك في ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول الإسلام
— الذيل المتنامي — الذيل على طبقات القراء — المنتقى من
تاريخ مكة — تلخيص تاريخ اليمن — الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ
التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — الجواهر
والدرر في ترجمة ابن حجر — القول المنبئ في ترجمة ابن عربي .

١٠ — ابن إياس : (ص ٤٦)

بدائع الزهور في وقائع الدهور — عقود الجمان في وقائع
الأزمان — زهرة الأُم في المعجائب والحكم — صراج الزهور
في وقائع الدهور — نشق الأزهار في عجائب الأقطار .

١١ — عبد الرحمن السيوطي : (ص ٥٦)

شرح الاستمعة والبسملة — تكملة تفسير القرآن —
طبقات الحفاظ — لب اللباب في تحرير الأنساب — إرشاد

المهتدين في نصرة المجتهدين — الرد على من أخذ إلى الأرض
وجَهَل أن الاجتهاد في كل عصر فرض — التنبئة بمن يبعثه
الله على رأس كل مائة — الكشف عن مجاوزة هذه الأمة
الألف — تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك — قمع
المعارض في نصرة ابن الفارض — الإسفار عن قلم الأطفار —
بلوغ المآرب في قص الشارب — الوديك في فضل الديك —
مسألة ضري زيدا قاعاً — حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة
— تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأشرف
قايتباي — بدائع الزهور في وقائع الدهور — تاريخ أسبوط —
كوكب الروضة — تاريخ العمر — المنتقى من تاريخ ابن عساكر
— الشماريخ في علم التاريخ — نظم العقيان في أعيان الأعيان
— بغية الوعاة في طبقات النحاة — الملتقط من الدرر الكامنة
— الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان — مارواه الأساطين
في عدم الحجى إلى السلاطين — تأخير الظلامة إلى يوم القيامة .

١٢ — عبد الباسط بن خليل : (ص ٦٨)

نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين — نبيل الأمل —
الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم — تاريخ الأنبياء
الأكابر — الوصلة في مسألة القبلة — الحكمة والسر في
الضوء — القول المأنوس — شرح القانونشة في الطب —
عمدة الطالبين ورغبة الراغبين في الفقه .

١٣ — حسن الطولوني : (ص ٧١)

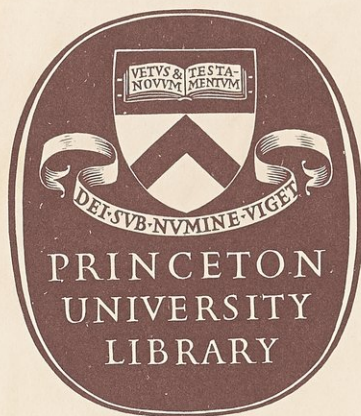
النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية — شرح
مقدمة ابن الليث — الأجرومية .

١٤ — ابن زنبيل الرمال : (ص ٧٥)

تاريخ أخذ مصر من الجراكسة — الدرة اليتيمة في تاريخ
مصر القديمة — تحفة الملوك والرغائب — المقالات في حل
المشكلات .

١٥ — محمد بن طولون الدمشقي : (ص ٧٦)

الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون — عجائب الدهر —
العقود اللؤلؤية في الدولة الطولونية — حور العيون في تاريخ
ابن طولون — الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام —
أعلام الوري — سلك الجمان — المنطق المنبي في ترجمة ابن
العربي — الاختيارات المرضية في أخبار التقي ابن تيمية —
التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان .



Princeton University Library



32101 106118506

P